اندهش يا صديقي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الطبعة الثالثة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

عبد الوهاب مطاوع

اندهش يا صديقى

دار الشروق

... ولا تتبع خطواتى !

لا تتوقع منى شيئا مفيدا فى مقال هذا الشهر [1].

تقول ومتى كان فيه شيء مفيد ؟ قفشة ظريفة لكن لا يهم فالمشكلة هى ان كل انسان يتصور انه يؤدى دائما مهام جليلة للانسانية . . وهذا التصور مفيد للحياة لانه يخلق فينا الحماس . . . والحماس ضروري جدا لاستمرار الحياة . . . فخذ منى هذه النصيحة واقتنع تماما بأنك تؤدى مهام جليلة للانسانية وللحياة كل يوم ولو بكلمة طيبة . . . ولو ربتة على كتف انسان، وعلى هذا الأساس اعتذرت اليك بأن مقالى لن يكون مفيدا كما اتصور لأن الوقت قد سرقنى فى اعداد مواد مجلة الشباب فلم تتح لى الفرصة الكافية للتفكير والدراسة قبل ان اجلس لكتابته . . . ومشكلتى مع الوقت قديمة جدا فهو اكبر لص فى حياتى . . وانا وهو عدوان لدودان منذ طفولتى . . . ودائما احس بأنى مطالب بأن أفعل أشياء كثيرة لا يتسع لها وقتى فألهث دائما للقيام بها وأتأخر كثيرا عن الموعد الملائم لها . . . فاذا شكوت لك من ذلك فانى أشكو اليك بمنطق الحكيم الذى سئل مرة ممن تعلمت الادب فأجاب : من شخص سيىء الأدب . . . فكنت كلما رأيت منه شيئا لا يعجبنى اجتنبت ان افعله فى حياتى !

أو بالمنطق الذى عناه الشاعر الألمانى جوته حين كتب قصيدة على لسان بطل روايته المأساوية آلام فرتر يقول فيها : كن رجلا . . . ولا تتبع خطواتى! يقصد بذلك ان يحارب موجة الانتحار التى انتشرت بين بعض الشباب الذين حاولوا الانتحار لفشلهم فى الحب تقليدا لما فعله فرتر فى روايته الحزينة وبهذا المنطق اشكو

---

(١) لمجلة الشباب التى أرأس تحريرها .

اليك نفسى وعجزى عـن تنظيم وقتى فأنا بكل أسف من هـؤلاء الذين لا يركبون القطار الا وهو يتحرك دائما . . . أى أني أصل غـالبا الى موعدى . . . والى العمل المطلوب منى فى اللحظة الأخيرة واحيانا بعـدها وهى آفة كلفتنى الكثير فى مراحل عمـرى . . . وهذا دليل اكيـد على أنى لست ممن يـرجون لانفسهم شأنـا كبيرا فى الحياة ، فكل الذين نفذوا مـا خططوا له فى حياتهم كانوا غـالبا ممن يحترمون الوقت ويجيدون تنظيمه ويحافظـون على دقة مواعيدهم واشهر مثـال معاصر على ذلك هو عميد الـرواية العربيـة الاستاذ نجيب محفوظ الـذى ينظم وقته تنظيما دقائقيـا دقيقا حتى كتب عنه الكاتب الساخر الراحل محمـد عفيفي انه «رجل الساعة» ساعة اليد التى تتحكم فى حيـاته بنظـام حديـدى . . . لا ساعـة الزمن أمـا الأمثلة الأخـرى فكثيرة . . . ومن أشهـرها الفيلسـوف الألمانى عمانـويل كانت ١٧٥٤ ــ ١٨٠٤ ، الذى كان ظرفـاء مدينته الصغيرة كونجزبرج يضبطون ساعتهم على السـاعة الثالثة والنصف اذا رأوه يغـادر بيتـه لنـزهـة العصر ! ومنهم كـذلك الفيلسـوف الألمانى شوبنهـاور الذى التـزم طوال الـ ٢٧ سنة الأخيرة ببرنـامج يومـى محدد بالـدقيقة والثانية يتضمن فقرة ثابتة هى سب صـاحبة البيت الذى يقيم فيه لمدة دقيقة واحدة كل يوم!

ورغم ان الساعـات لم تكن قد اخترعت بعد فقد كـان عظماء المسلمين يجيدون تنظيـم وقتهم على اسـاس مـواقيت الصـلاة فيبـدأون يـومهم عقب صـلاة الفجـر ويستريحون عقب صـلاة الظهر . . . وينامـون بعد العشـاء بقليل ويتسع وقتهم لما أرادوه .

والخليفة العظيم عمر بن الخطاب وجده ابنه يوما يغفو قليلا عقب صلاة الظهر فقال له : أتنام واصـحاب الحـوائج راكـدون ببـابك ! فأجـابه الرجل الحكـيم قائلا : يا بنـى ان نفسى مطـيتى . . . فـان جهـدتها قطـعتها ومـن قطـع المطيـة لم يبـلغ الغـاية !

والعقاد كان من ائمة احترام الـوقت والحرص على دقة المواعيد . . . وكان من

عادته اذا أعطى شخصا موعدا في الخامسة مساء فى بيته ان يدخل الى الصالون قبل الخامسة . . فإذا مضت ٥ دقائق بعد الخامسة غادر الصالون الى غرفة مكتبه ورفض استقبال ضيفه اذا جاء !

والحمد لله أنه ليس فى اصدقائى أحد فى دقة العقاد وإلا لما استقبلنى أحد . . . فأنا دائما راكب اللحظة الأخيرة والضيف المتأخر عن موعده والمتعثر دائما فى خجله من الداعى . والاصدقاء يتسامحون اما الغرباء فليس لديهم ما يبرر لهم هذا التسامح . . . وأحد هؤلاء الغرباء كان طيار احدى الطائرات الفرنسية التى كان علىّ أن أركبها الى باريس ذات مرة ـ فوصلت الى صالة المطار بعد أن ركب جميع الركاب و«العلع» اسمى فى ميكرفون المطار عدة مرات يدعونى للركوب قبل اغلاق الباب . . . وركضت وراء المضيفة الارضية الى الطائرة فاذا ببابها يتحرك ببطء لينغلق من الداخل فاصطحبتنى المضيفة الى حيث نقف ويرانا الطيار من كابينته ونشير اليه بفتح الباب لأدخل . . . فوقفنا ورآنا . . . وأشرنا . . . فأشار لى باصبعه . . . لا وكررنا الاشارة . . . فكرر الاشارة باصبعه ولا فكرهت اصبعه هذه كثيرا وقتها ولكنى لم أغضب منه فأنا المخطىء . . . وليس هو . . . حتى ولو ظلت الطائرة بعدها واقفة فى مكانها عشر دقائق كانت كافية لدخولى ودخول عشرات غيرى لو أرادلكنها دقة المواعيد التى اعانى من انيميا مزمنة فيها !

ولن أروى لك عن عشرات المواقف المحرجة المماثلة . . . ولن أروى لك حكاية موعدى مع احد وزراء الزراعة الذى وصلت اليه متأخرا بعض الشىء وكان زميلا لى قد سبقنى لمقابلته واعتذر عنى بمرض ألم بى فجأة فما أن دخلت متعثراً حتى بادرنى الوزير بالسؤال عن صحتى فاجبته بسذاجه انها على ما يرام ولم التفت للون الأحمر الذى غطى وجه زميلى !

ولا عن الافراح التى ذهبت اليها وكلى اصرار على ان اؤدى واجب المجاملة لزملاء او اصدقاء او معارف . . . فلم اجد العريس ولا العروس لانهما انصرفا فى سلام الى شهر العسل ولا عن الرحلة الخائبة التى قمت بها فى الليل بعد يوم عمل

شديـد الارهاق من القـاهرة الى الاسماعيلية لاجـامل زميلا شابـا دعانى الى
فـوصلت الى الشارع الـذى يقع فيه النـادى وسيارة العـروسين تغادره فـرأ
يريانى . . . وضاع تعبى هدرا واستدرت بالسيارة وعدت للقاهرة وأنا اتدا
الاجهاد .

والغريـب انى لا اتعمد أبـدا عدم احترام موعـد او ارتباط لكننى مطـا
بجبال من المهام والأعمال والارتباطات ، والـدرس الوحيد الذى تعلمته ،
هو اننى اذا فكـرت فى حجم المطلوب منى واستهولتـه فلن انجز منه شيئـا
داعى للتفكير ولأبدا بما هو مطلوب عاجلا ـ ثم بما بعده ثم بما بعده لأنه لا
لانجـاز أى عمل الا بأن تبدأ فيـه وكأنـه العمل الوحيـد المطلوب منك . .
اشتغلت بعملين فى وقت واحد فلن تنجز الاثنين . . . ولن تحسن أيهما . . .
بـد دائما من البـداية . . . ولا بـد من الاستغـراق فيما اؤديـه كأنه العمـل ا
المطلوب منى لكى احسنـه . . . ثم فليكن من أمرى بعـد ذلك ما يكـون و
بدأت كل متاعبى مع الـوقت والمواعيد لكنه لا يأس مع الحياة . . . فأنـا ع
ثلاثين سنة على تنظيم وقتى بدقة شديـدة والالتزام الدقيق بالمواعيد . . . و
«عازمـا» حتى الآن رغم بعض المحبطات الصغيرة واهنىء نفسـى على كل
احرزه على الـوقت وعلى كل عمل انجح فى اتمامه فى موعـده . . . وعلى كل
أفى به ولو متأخرا قليلا عن الموعد المناسب .

ومن المرات التى هنأت نفسى فيهـا على نجاحى فى الـوفـاء بوعـد التزه
كـانت حين دعانى منـذ سنوات قليلـة صديقى الفنـان يونس شلبى لحضـو
زفافه فى فندق هيلتـون . . . وكان لسوء حظى فى يوم سهرتى الاسبـوعية
الاهرام التى اشرف فيها على اصدار الطبعتين الثانيـة والثالثة منه ، ولا اغاد
الا عند الثالثة صباحا فى قمة الارهاق . . . لكن لا يهم فالفرح مستمر حتى
والمهم هو ان يرانى الـداعى وان اهنئه . . . وهكذا توجهت الى الفندق بعـ
وما ان دخلت قاعـة الفرح حتى ظننت انى اخطأت العنوان ودخلت ساحـ

سيدنـا الحسين . . . فالقـاعة التى تتسع لألف مدعـو انحشر فيها ثـلاثة آلاف على الأقل وليس هناك موضع لقدم ولا لمرور انسان وفكرت فى العودة لكن هل يضيع تعبى هـدرا . . . قررت ان اؤدى الـواجب للنهـايـة . . . وكافحت للمـرور بين اكـداس البشر ووصلت الى الكـوشـة بعـد عـذاب وبهدلـة . . . ونهض العـريس لاستقبـالي وتعـانقنـا وهنـأتـه وقـدمني لعـروسـه وتحدثنـا ٥ دقـائق ثم استأذنت للانسحاب فأكد ضرورة البقاء حتى نهايـة الحفل ووعدته . . . ونزلت اخوض فى الزحام مرة أخرى ووجدت نفسى قـريبا من الباب فأسرعت بالخروج مهنئا نفسى على قـوة ارادتى . . . وعلى نجـاحى المبــدئى فى عمليـة تنظيم وقتى بحيث اؤدى عملى . . . وأفى بكل ارتبـاطاتي ولـو متأخـرة قليـلا عن موعـدهـا . . . اذن فهل يرضيك ان يتصل بى يـونس شلبى تليفونيـا فى البيت بعد هذه الموقعـة بثلاثـة أيام . ويعاتبنى قائلا : كده ! أدعوك لحضور فرحى . . . ولا تحضر ؟!

هـذه هى المحبطـات الصغيرة التى قصـدتها والتى تخذّل عـزمى الصـادق على تنظيم الوقت واحترام المواعيد لكن لا يهم فالكفـاح دوار والارادة القوية لا تهزمها امثال هذه الهـنّـات من اصدقاء يشكون ضعف الذاكرة !

فلا تكن مثلـه من فضلك وتضيع كفاحى للـوفاء بعهـودى لك هدرا . . . ولا تكن «مثلى» فى هذا العنـاء لكى تعيش فى سلام مع الآخـرين . . . وتحقق نجاحك الخاص .

وشكرا لتسامحك معى وقبـولك اعتذارى عن عدم كتابة مقـال هذا الشهر لان الوقت سرقنى . . . قاتله الله . . . وقاتل من يسمح له بأن يسرقه !

روماتيـزم الصـداقة !

أرجو أن تسجل لى هذا التعـريف الجديد للصداقة الحقيقيـة . . فلقد قلت منذ سنوات انها روماتيـزم يتسلل إلى العظام فينقح على أصحابها من حين لآخـر مذكرا الانسان بحاجته إلى دفء الصداقة والأصدقاء !

والحق أنه ليس لى أى فضل فى ابتكار هذا التعـريف لأنى لم اتكلف لاشتقـاقه سوى التعبير عن حالى مع اصدقائى .

فبفضل الصداقة والأصـدقاء . . اصابتنى آلام روماتيزم العظـام فى عز شبابى فاكسبتنى ذلك حكمة الشيوخ واوجاعهم ، واضفت هذا الفضل إلى ديونى الكثيرة لأصدقائى .

وقصتى مع آلام الـروماتيـزم قـديمة وتـرجع إلى عـامى الثـانى بالجامعـة حين رفضت أن أقيم بـالمدينة الجامعيـة كما يفعل الطلبـة القادمـون من خـارج القاهـرة مثلى . . واخترت ان استأجـر شقـة فى حى قريب مـن الجامعة لاستمتع بـوحـدتى وحريتى فيهـا انام حين أرغب فى النوم . . واقرأ حين تلذ لى القـراءة واستقبل فيها من أشـاء من أصـدقـائى . . ، فـانـا ـــ دائما ـــ ومنـذ سنـوات صبـاى مصـاحب ومصحوب .

وعندمـا جئت الى القاهرة لألتحق بـالجامعة اقمت فى عـامى الأول فى شقه مع اسرة تقيم بشارع الدقـى كما كان يفعل الطلبة فى أيامى . وكـانت ربة الأسرة سيدة طيبـة تعـاملنى بعطف الأمهـات على فتـى صغير السن اغترب عن اهلـه ليتعلم فى المدينـة الواسعـة ، وتقوم عنى بكل شئونى . . وعنـدما انتهت الـدراسة وعـدت لمدينتى الصغيرة فى الاجـازة استخلفتنى ربة الأسرة أن أعـود إلى السكنى معهم فى

العـام الجديـد لكنـى حين انتهـت الإجـازة استحلفتنـى ربـه الأسرة أن أعـود إلى السكـن معهـم فى العـام الجديـد لكنـى حين انتهـت الإجـازة . . لم استطـع أن أفى بوعـدى لها . . فقد كنت رغم اقامتـى المريحة معها افتقد حـريتى الشخصية وسط عائلـة لا بد لى أن اراعى حرمتهـا عند استقبالى لأصـدقائى فقررت أن اؤجـر شقة مستقلة لاستمتع فيها بـوحدتى واستأجرت شقة فى حى قـريب من الجامعة اقمت فيها ١١ عـاما ، وفى هـذه الشقة بدأت عـلاقتى بآلام الرومـاتيزم . . فلقـد بدأت استقبل فيها أصـدقاء الصبـا القادمين من مدينتـى للقاهرة لـزيارتى . . واصـدقاء الجامعة الجدد الذين اكتسبت صداقتهم فى القاهرة ، فلم تمض على اقامتى فيها عدة شهـور حتى اكتظت الشقـة الصغيرة بروادهـا الـدائمين واصبح سريـري الوحيـد مشغـولا دائما بضيف أو ضيفين تنازلت لهما طـائعا عن فـراشى . . وارض غرفـة النوم كاملة العـدد . . وارض غرفة الطعام يحتلها أربعة ضيـوف على الأقل ينامون حول مائدة الطعام مع كل ضلع من أضلاعها الأربعة . . وأينما سرت فى أى مكان من الشقة تعثرت فى نائم أو جالس . فتمضى الأسابيع قبل أن أجد ليلة خالية أريح جسـدى المكدود فيهـا على فراشى حتـى أصبحت لا اعرف النـوم فوق السريـر فى أحيان كثيرة إلا اذا سافرت فى إجازة قصيرة الى أهلى . ولم تكن المشكلة الحقيقية فى الأصـدقـاء من الضيـوف . . وانما كـانـت فى «ضيـوف الضيـوف» اذا صح هـذا التعبير . . فأصدقاء الصبا يأتون إلى من مـدينتى فأسعد بهم وأتنازل لهم راضيا عن فراشى لكننا جميعـا من فصيلة واحدة تقدس الصداقة ومتعـددة الصداقات ، لهذا فلا تمضى أيام حتى يأتى إليهم من مدينتنـا أصدقاء لهم لا أكاد أعرف أسماءهم . . فيصبح أصدقائى أصحاب بيت ، ويحتم عليهم الواجب أن ينزلوا «لضيوفهم» عن فـراشهم . . ويشرّفـوا الأرض معنـا . . ونتحـرك فى تـرتيب البروتـوكـول وفقـا للأقـدمية ودرجـة العشـم . . فمن كـانوا ينـامون على أرض غـرفة النـوم الخشبية يهبطون درجة فى السلم الاجتماعي ، ويتزحزحون إلى أرض غرفة الطعام . . ومن كانوا يفترشونها مستمتعين بـالدفء القليل الذى توفره . . يتزحـزحون تلقائيا إلى

صقيع الصالة مع صاحب الشقة . . كما تقضى أصول الضيافة . . والجميع ينامون فى صفوف متراصة كأننا فى عنبر المساجين . . وكلما جاءنا زائر جديد واصلنا التحرك كما تدفع الموجة الجديدة الأمواج القديمة أمامها إلى الشاطئ حتى كاد الزحف فى بعض الأوقات يطردنا أكثر من مرة إلى الردهة الصغيرة خارج الشقة . . وكل ذلك فى عز الشتاء ، وليس فى شهور الصيف ، وبعض ضيوف الضيوف لم يتورعوا عن استضافة بعض أصدقائهم المجهولين لى ولأصدقائى تماما حتى أصبحنا غرباء بينهم . . وأصدقاء الاسكندرية الذين فارقتهم بجامعة القاهرة . . يأتون لزيارتى من حين لآخر فى رحلات منتظمة ، وأرد أنا لهم الزيارة فى مواعيد محددة كأننا من رؤساء الدول . . وفى زياراتى المتكررة لأصدقاء الاسكندرية فى فصل الشتاء نمت بذرة الروماتيزم التى استقرت فى عظامى من النوم فى عنبر المساجين بشقتى الصغيرة وترعرعت . فقد كان لا يحلو لنا حديث إلا على كورنيش البحر حتى الفجر وعواصف الشتاء تكاد تقتلعنا من الأرض اقتلاعا ولم يكن كورنيش الاسكندرية وحده هو المسئول عن آلامى الروماتيزمية القديمة فكورنيش النيل أيضًا له باع كبير فى تأكيدها وترسيخها ، فلقد كانت شقتى قريبة منه . . وكان مكان لقائنا المختار فى كازينو صغير تحت كوبرى الجامعة كنت اتردد عليه كل يوم تقريبا ومن طول العشرة وكثرة التردد أصبح الجرسون يغلق البوفيه فى الثانية صباحا ويتقاضى حسابه ثم يتركنا مع الخفير لحراسة الموائد والمقاعد فى عز البرد ! وفى إحدى ليالى ديسمبر التى قالت الصحف فى اليوم التالى انه لم يمر على مصر برد مثل بردها منذ ثلاثين عاما أصر أحد أصدقائى وكنا قد تخرجنا وعملنا منذ سنوات على ان يصلبنى أمامه على كورنيش النيل حتى الفجر وهو يروى لى متأثرا ومنفعلا قصة حب العمر فى حياته فكتمت آلامى الروماتيزمية احتراما لآلامه العاطفية . وبسبب هذا الصديق بالذات كدت أصاب مرة اخرى لا بالروماتيزم وانما بقرحة المعدة أيضا . فلأنى ممن يعتبرون الصداقة الحقيقية قيمة ثمينة فى الحياة فانى لا أسافر إلى دولة ما فى عمل إلا وأتحايل لأضع المدن التى رحل اليها بعض اصدقائي

على خط سير الرحلة لأنتهز الفرصة وازورهم فيها بلا هدف سوى الالتقاء بهم . وفى احدى زياراتى لألمانيا منذ سنوات . . انهيت عملى فى فرنكفورت ثم سافرت فى رحلة طويلة إلى هامبورج خصيصا لأزور صديقا مقيما هناك منذ سنوات ، فوصلت للمدينة فى منتصف الليل وطلبت من سائق سيارة الأجرة ان يحملنى إلى أى فندق صغير فى وسط المدينة . . وصدمت بعد وصولى اليه بأن مطعمه مغلق وليس هناك محل أو مطعم قريب استطيع تناول عشائى فيه . . فبت ليلتى على الطوى وفى الصباح جاء الافطار فوجدته من السجق الألمانى الشهير وليس عندهم غيره فرفضت اكله لأنه من لحم الخنزير واحتسيت كوب الشاى واسرعت فى سيارة اجرة إلى عنوان صديقى فى الثامنة صباحا واردت ان افاجئه بحضورى فلم اصرح له باسمى حين خاطبته من تليفون الباب وانما قلت له صديق من مصر ، ففتح الباب مرحبا دون أن يعرف شخص زائره . . وصعدت السلم اليه فى الدور الخامس وأنا ألهث من التعب فما ان تعرَّف على حتى قابلنى بمظاهرة وقادنى مبتهجا الى غرفة المعيشة وهو لا يكف عن الكلام والترحيب والسؤال عن مصر والأصدقاء . . وبعد قليل وضع أمامى براد الشاى ثم جلس على الارض ليتيح لرئتيه افضل وضع للكلام وهو من فرسانه ثم راح يتكلم بلا توقف لعدة ساعات . . ويسألنى فأجيب . . ويسترجع ذكريات زمان والروماتيزم الذى أهداه لى فى مصر . ثم تنبهت فجأة إلى آلام شديدة فى معدتى فتذكرت مشكلتى معها وهى ان عصارتها الحمضية زائدة على الطبيعي فاذا خلت نهائيا من الطعام سببت لى آلاما فظيعة فان لم ابادر بتناول شىء يسير من الطعام ولو باكو من البسكويت توحشت العصارة وبدأت تنهش جدران المعدة وتهددها بالقرحة ، وهذا هو سر الاغماءة الخفيفة التى أشكو منها كل ليلة فى رمضان عقب الافطار . وبسببها فانى لست من هواة الطعام لكننى احتاج فقط إلى كسرة خبز أو باكو من البسكويت كل ساعتين أو ثلاثة وربما اكتفيت بها عن أى طعام آخر طوال اليوم ـ أما غرامى الحقيقي فبالشاى أولا ثم القهوة ، لكن صديقى غارق فى حديث الذكريات وقد أنسته سنوات

الغربة الطويلة مشكلتى مع الوحش الـذى ينهشنى وتنبهت فاذا بالساعة قد تعدّت الثـانيـة بعـد الظهـر ، وآلامى قـد أصبحـت فـوق الاحتمال ، فـاستأذنت منـه فى الانصراف إلى فنـدقى على أن أعـود اليـه فى المسـاء لكن هيهـات ان يسمح لى ، وخجلت ان أصرح لـه بالسبب الحقيقي لـرغبتى فى الانصراف لأن اليوم كـان يوم سبت وهو يقيم مع سيده ألمانية عجوز فى نفس الشقة وكل شىء عندهم بالحساب وربما كانـا قد أعدا مـا يحتاجانه من طعـام خلال عطلة نهايـة الاسبوع بما لا يسمح باستضافة زائر غير متوقع مثلى ، فتحاملت على نفسى على امل ان يرتوى صديقى من حديث الذكـريات ويسمح لى بالانصراف فمضت ساعة اخـرى تحولت بعدها الآلام الى خناجر مسمومة تطعننى فى جدران معدتى بلا رحمة فأعدت عليه رجائي فلم يلتفت اليـه وواصل الكـلام ! . . ثم اصبحت السـاعـة الـرابعـة والخنـاجـر أصبحت مناشير يضاعف من حدتها احتساء الشاى والقهوة والتدخين ، وصديقى غائب مع الذكريات فتوسلت اليه ان يأذن لى بالانصراف فلم يقبل ، فكدت أولول باكيا بين يديه طالبا العفو والسماح والاذن بساعة واحدة اغيبها عنه . . ولكن كيف يحدث ذلك والحديث ذو شجـون والـذكريـات صـدى السنين الحاكى ـ كما يقـول الشاعر ـ فما ان بلغت الساعة الخامسة مساء حتى تذكرت فجأة ان الضرورات تبيح المحظورات وان الـدفاع عن النفس يبيح القتـل ، واننى فى حالة دفـاع شرعى عن نفسى ضد وحش ينشر جدران معدتى بسنونه الحادة فنهضت مستجمعا كل حزمى وارادتى واعلنت بلهجة صـارمة لا تسمح بأى تـراجع اننى لا بد ان اغـادر المكان الآن وفورا لأتصل بجريدتى تليفونيا لابلاغها بخبر هام حتى لا أتعرض للمساءلة وسوف اعود اليه بعد الاتصال مباشرة لأن تليفونه ليس دوليا ثم هرولت الى الباب ، وهـو يهرول ورائى ورائى مـؤكدا على ضرورة العـودة سريعـا ، وهبطت السلم قفزاً وهـو يطل على من «الدرابزين» مكـررا تأكيداتـه وانطلقت إلى أقرب مطعم ، واسكتُّ الـوحش الـذى بداخلى ، وبعـد أن التقطت أنفـاسى ، واسترخيت . . تذكرت أن صديقى هـذا هو الوحيد من بين كل اصدقائى الذى يتبع نظـاما غذائيا

عجيبـا فى حياتـه فهو لا يتنـاول إفطـاراً ولا غداء ، وإنما يظل طـوال نهاره يشرب القهـوة ويدخن إلى أن تـأتى الساعـة التـاسعة مسـاء فيتنـاول عشـاءه وهو وجبتـه الوحيـدة كل يوم . . فأثنيت على «حـزمى» المتأخر الـذى أنقذنى من مكـابدة تلك الآلام حتى التاسعـة . . واقسمت ألا أزوره بعدهـا إلا متحصنا بـوجبتى الافطار والغداء .

ورغم كل ذلك فاذا كنت قد شبهت الصداقة الحقيقيـة بالروماتيزم فليس ذلك لأنها مؤلمة . . وإنما فقط لأنها دائمة ، ولا يهزمها دواء . . ولأنها أيضًا كآلامه تظل كـامنة تحت السطـح حتى يخيل إليك أنك نسيتهـا ثم «تنقح» عليك فجأة إذا تلقت نفحة من هواء الذكـريات لتذكرك بوجودهـا وقوتها وبأحلى أيام العمر . . وأجمل ذكرياته !

اندهش ... يا صديقى !

حين كنت طالبا فى سنواتى الأولى بالجامعة . . . كنت عضوا فى «عصابة» ثقافية تحرص على معرفة مدلولات المصطلحات الفكرية والسياسية الشائعة فى عصرنا والتشدق بها فى احاديثها بلا هدف احيانا سوى الاعلان عن اننا نعرف معانيها! وكان من هواياتنا «الشريرة» وقتها ان نتصيد المخدوعين بمظهرنا الثقافى ونشبع غرورنا فيهم باستعراض آرائنا القيمّة امامهم فى كل الصراعات الفكرية والمذهبية المثارة فى ذلك الوقت من الخلاف العقائدى بين الصين وروسيا . . الى الخلاف «الفكرى» بين شكوكو واسماعيل ياسين ! وخلال انهماكنا فى المناقشة وطق الشعارات الضخمة كان يحدث احيانا ان نلاحظ ان بعض الضحايا الجدد لا يعرفون معانيها . . فلا نريحهم بشرحها أو بتبسيط معانيها لهم وانما نواصل الحديث ونستدرجهم للمشاركة فيه وتقليدنا فى استعمالها ثم يتوقف احدنا فجأة ليسأل احد المشاركين الجدد عن معنى احد هذه التعابير فتبدأ متعتنا الشريرة لأنه لن يعترف غالبا بأنه لا يعرف معناه بعد ان ردده فى حديثه من باب التقليد . . ويبدأ فى «التطجين» بكلام لا معنى له ونحن نتبادل النظر فى سعادة ونتلذذ بمراقبته ووجهه يحتقن بتأثير الانفعال الخفى بالكذب والموقف الحرج ، ثم نتشاور بالنظرات عن اسلوب التعذيب الفكرى الذى سنتبعه معه وهل هو الأسلوب المغولى الذى يتعمد اطالة التعذيب حتى آخر مدى ام الأسلوب الرومانى الذى يلقى بالضحايا مباشرة الى الأسود الجائعة ؟ . فاذا كان الأول فلسوف نسايره ونستمع اليه باهتمام شديد ونسرف فى اطراء معلوماته وثقافته العريضة ونتشكى من جهلنا بالقياس الى علمه الواسع . . ونبالغ فى ذلك واحشاؤنا تتمزق بالضحك المكتوم الى ان يكتشف

الحقيقة وينفجـر فينا ويقـاطعنا لفترة تطـول أو تقصر . . وان كان الثـانى فلسوف نسمع له باهتمام ولا نعلق على ما يقول ونكتفى بـالمتعة الشريرة باحراجه ثم يهمس احدنا فى أذنه بالحقيقة ويزداد احساسه بالحرج ! .

ورغم ندمى على مشاركتى فى هذا التعذيب الفكرى واكتشافى فيما بعد اننا جميعا لم نكن مثقفين وانما ادعيـاء ثقـافة الا أن لهذه العصـابـة فضـلا علىّ لاينكر هـو أنها علمتنى الا أهـرِّف بما لا اعـرف . . وألا أخجل من ان اعلن عـدم معـرفتى بما لا أعـرفه . . ومـن أن أسأل من يحدثنى عن شىء لا أفهمـه عن معنى مـا يقول ومـا يستخدمه من تعـريفات واصطلاحات ثم تقدم بى العمـر فعرفت الكثير . . وكان أهم ما عرفته هو أن المثقفين الحقيقيين هـم أكثـر الناس ادراكا انهم لا يعرفون لأنهم كلما عرفـوا المزيد تفتحت أمامهم بحـار جديدة من المعـرفة لا يحيط بها إلا علم من وسع علمـه كل شىء سبحـانـه لهذا فهـم يمضـون العمـر «يسألـون» عن معـانى الأشياء . . يسألون الكتب . . ويسألون الأكثر علما فى تخصصاتهم ولا يدركون الا قليلا ويندهشون لما يقرأون . . ولما يسمعون ولما يرون فى الحياة من ظواهر وأشياء قد تبدو فى أعين الآخرين عادية ومألوفة . . وكلما ازدادت دهشتهم ازداد حماسهم لأن يكتشفوا سر ما أدهشهم وتزداد معارفهم . . لأن الدهشة هى بداية المعرفة كما قال ارسطو . . ولأنك اذا لم تنـدهش لشىء فلن تجد فى نفسك حماسًا أو دافعًا لأن تعرف كنهه وتجلو سره . . .

ولولا مـوقف الدهشة هـذا لما حاول الانسان ان يعـرف اسرار الطبيعة واسرار العـلاقات الانسـانية ولما اكتشف العلماء والمفكـرون والفقهاء نـظرياتهم ولما كتب الأدباء معظم اعمالهم .

فلولا ان انـدهش سقراط مثـلا حين حيَّـاه رجل فى الطـريق قائلا لـه «صباح الخير» فتـوقف متفكـرا فى معنى الخير ثم راح يتسـاءل عن معنـاه . . وعن معنى الفضيلة والحق والجمال . . الخ لما كانت بداية الفلسفة ! .

ولـولا أن اندهش بعض العلماء حين لاحظـوا ان السفينـة يصغر حجمهـا كلما

ابتعدت عنهم لما قادهم تعجبهم الى اكتشاف كـروية الأرض . . ولولا أن اندهش الانسـان حين رأى السفينـة الكبيرة تطفو على الماء والمسمار الصغير يغـوص فيـه لما اكتشف قانون الطفو .

ولولا أن اندهش عالم النفس النمسوى سيجموند فرويد حين لاحظ ان احدى مريضـاته تغسل يـديها مائة مـرة كل يوم وهى تـردد ان يديها قـذرتان ، لما اكتشف العلاقـة الهستيرية بين الاحسـاس بالإثم وبين غسل اليـدين فى بعض الحالات ولما عالجها بحملها على الاعتراف بخطيئتها وغسل ضميرها منها .

ولولا أن إندهش عالم الطبيعة اسحق نيوتن حين لاحظ أن الضوء تتغير طبيعته حين يخترق الزجـاج لما اجرى تجاربـه لتحليله الى ألـوان الطيف المعـروفة بـالمنشور الـزجاجى ولـولا تعجبه أيضـا لمشهـد رآه البشر ملايين المرات وهـو سقوط ثمـرة ناضجة من فرعها ، لما اكتشف قانون الجاذبية الأرضية .

بل لولا أن إنـدهش العظيم الراحل يوسف إدريس لقدرة خـادمة صغيرة على حفظ تـوازنها وهى تحمل صـاجـات كعك العيـد وصينية بطـاطس ولترددهـا بين واجبها وبين رغبتهـا كطفلة فى مشـاركة الأطفـال لعبهم فى الشارع لما كتـب قصته الانسانية الجميلة «نظرة» التى ولد بها كاتبا عملاقا حين نشرها لأول مرة ! .

بل إن كل المكتشفات العلمية الحديثة والأعمال الأدبيـة الخالدة هى ثمرة دهشة الإنسان أمام الظواهر الطبيعية والظواهر الإجتماعية والإنسانية ومحاولته الربط بين اجزائها المتناثرة بالتجريب فى العلم . . وبالتحليل والتأمل فى الفكر والأدب .

والانسان الـذى يفقد قدرتـه على الدهشة يفقـد حماسه للحياة ورغبتـه فى إثراء معارفه وتجاربه الانسانية وتتجمد مشاعره ولا يعود صالحا لشىء إلا للموت ! .

ولقد روى أحد القضـاة أنه زار البيرونى أعظم عالم فى التاريخ الاسـلامى وهو فى النزع الأخير . . وصدره يتحشرج بحشرجة الموت . . ففوجئ بالبيرونى يسأله عن مسألة فى فقه المواريث وتحرَّج القاضى من ارهـاقه فسأله : أفى هذه الحالة ؟ . . فأجابه مؤكدا : نعم فى هذه الحالة . . فـلأن اغادر الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة خير

لى من أن اغادرها وأنا جاهل بها ! . . ويجيبه القاضى عما سأل ولايكاد يغادره حتى ينعيه له الناعون وهو على بعد خطوات من بيته ! .

والفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون كان يركب ـ ذات يوم ـ حصانا وهو يفكر فى طريقة لحفظ الجسم بعد الموت ، فنزل عن حصانه وذبح دجاجة وملأها بالثلج واستعد للعودة ليرقب ما سيحدث لها ففاجأته القشعريرة وارسل لاصحابه أنه يموت ومات فعلا وهو يفكر فى «المسألة» التى أراد ان يعرفها قبل ان يغادر الحياة ! .

فاندهش انت أيضا يا صديقى لكل ما تراه وتسمعه فالدهشة بداية الطريق للمعرفة . . ووقود الحماس لمعرفة الأشياء وللحياة . والمثقف الحقيقي هو من يعرف أنه لا يعرف الكثير ويريد أن يعرف الكثير . . والجاهل هو من لا يعرف انه لا يعرف حتى القليل ولا يريد أن يعرف المزيد .

والأخطر منهما هو من كان مثلنا زمان والذى يعرف أقل القليل ويتصور انه يعرف الكثير . . «ويعذب» الآخرين بالقليل الذى يعرفه ! .

وأنتـــــــــــــم !

شيئان كـرهتهما فى رحلاتى للخارج حين أكون مـدعوا لزيارة دولـة ما . . هما المرافق الذى تفرضـه على الجهة الداعية ليصاحبنى فى تنقـلاتى وزياراتى ، ومآدب الغـداء والعشـاء الـرسميـة فى دول اوروبـا الشيـوعيـة قبل أن تتخلص من الحكم الشمولى الشيوعى .

فأما المرافق فقد كانت لى معه فى معظم رحـلاتى متاعب ومفارقات طريفة . . وأما المآدب الرسمية فى الدول الشمولية سابقا فقد كانت طقوسها تصيبنى بمتاعب معوية حادة الى جانب مللها .

فلقد زرت احدى هذه الـدول فكان المرافق لى بالضرورة من كوادر الحزب . . وسائق السيـارة من كوادره أيضًا . ومهمـة المرافق هى أن ييسر لى زياراتى ويترجم لى محادثـاتى مع من لا يعرفـون الانجليزيـة . ثم مراقبتى وكتـابة تقـرير يـومى عن تحركـاتـى وتسجيل كل شـاردة وواردة فى اتصـالاتى بمن التقى بهم عـرضـا فى الشارع . كأننى لست ضيفا رسميا على الدولة والحزب وانما «امبريالي» متخف جاء لينظم الثورة المضادة ضد «الحكم التقدمى للحزب الطليعي القائد» . وكان هذا هو المتبع مع الـزوار الأجـانب بـلا استثنـاء بل مع الجميع من ابنـاء الشعب القـائد . فـالمرافق الذى يبـدو كالصنـم ولا يجيب إلا على الاسئلة التى لا تتعـارض مع خط الحزب . . يراقبنى . . وسائق السيارة يراقبـه . . والجميع يراقبون الجميع ! وكان لا بد أن يكـون من بين فقرات برنامج الـزيارة عدة مآدب للغـداء أو العشاء فى كل مدينة نزورها . . فيحضرها مسئول الحزب فى المدينة وتبدأ برفع الانخاب فى صحة أهداف عالية فخيمة لا يتناسب جـلالها مع المأدبة الفقيرة والوجوه الجامدة المحيطة

بها ، لكن لا بـد من اداء الواجب والالتزام بآداب الضيـافة . . وقـد تعلمت من تجاربى السابقـة أن من لا يشرب الخمر يستطيع أن يشـارك فى الانخاب بكأس من الماء . . وكلما رفعـوا أنخابهم رفعت معهم كأس الماء وتجرعتـه . وبدأت إحـدى هذه المآدب وكنـا فى بلدة جبلية صغيرة والمدعـون لا يزيدون على ثمانيـة والجو بارد ورغبة الـرفاق فى الدفء والاستمتـاع بالطعام قـوية ، فألقى مسئـول الحزب كلمة قصيرة ترددت فيهـا الشعارات المألوفـة فرددت عليها بكلمـة اشد قصرا والمترجم يـلاحقنى كأننى انطق بـالـدرر ثم بـدأت الانخاب فشربنـا نخب السـلام العـالمى والتآخى بين الشعـوب وجلسنا . وتناولنا بعـض الطعام فاذا بمسئول حـزبي آخر ينهض رافعا نخب التضامن الآسيـوى الافريقى ثم نخب الحركة الوطنيـة لتحرير الشعوب . . ثم عدم الانحياز ثم الثـورة الفلسطينية . . ثم تحرير سيناء ثم احمرت الوجوه بحـرارة الفودكا التى يتجرعونها وغاب الـزمان والمكان عن معظمهم فلم يرحموا ضعفى وعجزى عـن ملاحقة انخابهم اللذيـذة بكأس الماء التى شربت منها حتى امتلأت ولم يعد فى معدتى متسع للمـزيد . . وتواصلت الانخاب وفتشنا عن جميع الحركـات الاستقلاليـة فى العـالم حتى شربنـا نخب استقلال اقليـم ناميبيـا ! و توتعـت أن يكون مسك الختـام اذ ليس بعد استقـلال ناميبيـا عن جنوب افـريقيا استقلال ، لكن هيهـات ان تنتهى حركات تحريـر الشعوب من خريطة الـدنيا . . فأمسك امين الحزب بالمدينـة الجبلية كأسـه استعدادا لـرفعها . . فأنذرتنـى مثانتى الممتلئة عن آخرها بكارثة توشك أن تفسـد جلال المناسبة النضالية الخطيرة ، لكنه خيل الى أن مصائر هـذه الشعوب المكافحـة يتوقف كلـه الآن على قدرتى على رفع كأس الماء الى شفتى هــذه المرة فلـم اشأ خــذلانها وتحاملت على نفسى ورفعتهــا بصعوبـة بالغة إلى أن تم النخب بسلام . واستأذنت مضيفى فى دقـائق قليلة اذهب خلالها الى الحمام لاعود لمواصلة النضال وتحرير كل الشعوب المقهورة فى هذه الليلة السوداء وهـرولت فى اتجاهه . وعدت أكثر نشـاطا واستعدادا للكفـاح فتواصلت الانخاب حتى عجز الرفاق عن النهوض عن المائدة وجاء الجرسونات ليساعدوهم

وقامـوا يتسانـدون . وعدت الى الفنـدق وانا اقسم الا اشـارك فى اى حركـة تحرير وطنية من هذا النوع مرة اخـرى . لكن هل يستطيع الانسان أن يحقق لنفسه كل ما يتمناه لها ؟ بالطبع لا . . لقد تواصلت المآدب والأنخاب .

وتكـررت القصـة بشكل أقل كاريكـاتيريـة مما حدث فى تلك المدينـة الجبليـة الصغيرة فى دول اخـرى شموليـة ، حتى تسـاءلت فى بـراءة ذات مرة هل تتأخـر الحركة التقدمية العالمية كثيرا اذا وضعوا أمـامى فى هذه المآدب كوبا من الشاى بدلا من كأس الماء ؟ فكـان الجواب انها غـالبـا سـوف تنهـار من أسـاسهـا كما انهارت الشيوعية فجأة فى الاتحاد السوفيتى وشرق اوروبا .

وأما المرافق فطـرائفه كثيرة وقد تعلمت من مـرافق شاب صـاحبنى فى زيارتى لبغداد سنة ١٩٨٣ إلا أحرج مرافقا فى دولة بوليسية بأى سؤال عن الديمقراطية أو الحريات أو أى شىء يتعـارض مع خط الحزب الحاكم ولو كان عن ممثل كـوميدى مغضوب عليه مـؤقتا من رجال الحزب . وتعلمت هذا الـدرس الثمين من مرافق بغداد الـذى كنت أسأله السؤال العـابر ومن باب الـدردشة وتسلية الفـراغ خلال رحلة السيارة ، عن نسبـة الشيعة فى العراق مثلا فلا يجيبنى إلا بإبتسـامة بلهاء ولا يرد كأنى لم أسأل وكأنـه لم يسمع . . وهكذا فى كل الأسئلة المماثلة حتى رجـوته أن يسأل نفسه هو الاسئلة المسموح بها ويجيب عنها لأجنبه الحرج !

أما فى جيبوتى وهى دولـة افريقية تقع فى الطرف الجنـوبى للبحر الأحمر وعضو بالجامعـة العربيـة لكن معظم سكانها لا يتكلمـون اللغة العـربية وانما الفـرنسية أو الصومالية ، فقد كان مرافقى فيها هو سائق السيارة توفيرا للنفقات وكان شخصية ذكية وغـريبة ويتحدث بضع كلمات من العـربية وقد تعلمت منـه شيئا يستحق ان يضاف الى معلومات اساتذة العلوم السياسية عن العلاقة بين الحكومات والشعوب فى العالم الثـالث . فقد صـاحبنى فى جولـة الى سوق مـدينة جيبـوتى لألتقط بعض الصور للناس والحياة فى هذه المدينة فما أن نـزلت الى السوق وصورت بعض الباعة والأشخاص العابرين حتى فوجئت بحالة هياج عامة بينهم . . وبالشرر يتطاير من

عيونهم وباصوات تتحدث بالصومـالية فى غضب شديد ومن يعرفون بضع كلمات من العربية منهم يقولون «لا تصـوّر» كل ذلك ومرافقى المسئول عن حمايتى جالس أمام عجلة القيادة ينظر الى فى هدوء كأن شيئا لم يكن فعدت اليه منزعجا وسألته عن سبب غضبهم فقال لى فى ثقـة غريبة لا تخشى شيئا سوف أتصرف فـورا ، ثم خرج من السيارة ونطق ببضع كلمات بالصـومالية فاذا بالثـورة قد خمدت واذا بمن كادوا يفتكون بى منـذ لحظات يبتسمون فى وجهى ويدعـوننى لتصويرهم ويـرحبون بى ونظرت للسائق نظـرتى الى ساحر افريقى قـادر على المعجزات واستردت ثقتى فى نفسى . وسألتـه فى خيلاء : طبعـا قلت لهم انى ضيف الحكومـة فهدأوا ؟ فـاذا به يقـول لى ببساطـة : ابدا بـل قلت لهم انك سائح لا عـلاقـة له بـالحكومـة ! لأنهم يتصورون ان تصويـرهم من جانب الحكومة لا بـد أن يكون نذيرا بضريبـة جديدة للبلدية . . أو غرامة . . أو مخالفـة . . ومجىء مندوب للحكومة لا بد أن يعنى لهم متاعب جديدة بشكل أو بآخر .

وتسرب خيـلائى فى الهواء وانكمشت فى السيـارة وأنـا أطلب منـه العـودة للفندق !

وفى رومانيا جاءوا لنـا بمرافق شاب تعلم العربية فى جامعة مـوسكو ويتحدثها بلغة الـزمخشرى وسيبويه ولا يعرف إلا مفـرداتها الفصيحة . . وكان نجـدة لنا فى التفاهم مع صغار المسئـولين والحزبيين الذين لا يعرفون سوى الرومـانية . . ولقد طالت زيـارتنا لرومانيـا ١٥ يوما وكنا وفـدا من ثلاثة أعضاء من نقـابة الصحفيين المصريين فتجولنا فى مدنها من الشمال الى الجنـوب والمرافق معنا . . وقد اقترب منا واقتربنا منه وكان اسمه بيتر فترجمناه للعربية على الفور الى «بطرس» فاذا رضينا عنه واستجاب لمطـالبنا اسميناه بطـرس الأكبر مؤسس الـدولة الروسيـة الحديثة وأول اباطرتها الذى حكمها من ١٦٨٢ الى ١٧٢٥ وعاش ١٠٤ سنوات وحكم بلاده ٤٣ سنة متواصلة . . وتمنينا لـه عمرا كعمره الطويل وفترة «حكم» لا تقل عن فترته ! فيضحك سعيدا . . واذا ضـايقنا وطـوّع برنامجنـا لزيـارة بعض اقاربـه فى الطريق

خلسة من وراء الحزب نادیناه «بیتریه» كما ينطقون اسمه بالرومانية .

وكان من عـادته كلما جلسنـا للغداء أن يتأكـد فى كل مرة ممـا لفتنا نظـره اليه فى اليوم الأول وهو أننا لا نأكل لحم الخنزيـر وانما نأكل لحم البقر . . وكان هو يفضل لحم الخنزيـر فيسألنا وهو يمسك بـالقائمـة : انا خنزيـر . . وأنتم بقر ؟ فنضحك والفت نظره الى خطأ السؤال بهذه الصيغة واصحح له الجملة فيحفظها ويكررها ثم يعود .

وكان قد ضـايقنا بالانتظار طويـلا فى ذلك اليوم لينتهى من الحديث مع بعض اقاربه حين جلسنا الى مائدة الغـداء . . وسألنا نفس السؤال التقليدي بنفس الخطأ اللغوى :

● أنا خنزير . . وأنتم بقر ؟!

فوجـدت نفسى أجيبه على الفور : لا . . بل أنت خنـزير . . ونحن نأكل لحم البقر !

وضحك زميـلاى فى الوفـد وشمتُّ أنا فى «بيتريـه» الخبيث الذى طـوع معظم فقرات برنامجنـا لأغراضه العائلية والشخصية ونسى . . حكـاية تضامن الشعوب واستقلال ناميبيا فى معظم الرحلة !!

القفز فوق الحواجز

فى قصة جميلة للكاتب العظيم تشيكوف . . . التقى رجلان غريبان فى محطة القطار أحدهما بدين انيق كان خارجا من مطعم المحطة والآخر نحيف جاف العود كان نازلا لتوه من القطار ومعه زوجته النحيلة وولده وحقائب وصناديق ، واكتشف كل منهما ان الآخر هو صديق الطفولة القديم فاندفع يحييه ويعانقه . . . ووقف الاثنان مبهورى الأنفاس من المفاجأة السعيدة ، وقدم النحيف للبدين زوجته وولده وراح يذكّره باللقب الذى كان التلاميذ يغيظونه به فى المدرسة والبدين يضحك من اعماق قلبه ويذكّره بلقبه الآخر الذى اطلقوه عليه ويسأل البدين صديقه القديم عن احواله فيجيبه انها لا بأس بها ، صحيح ان المرتب ضئيل والوظيفة صغيرة . . . لكنه موظف محترم فى الدرجة الثامنة وزوجته تساعده باعطاء دروس فى الموسيقى . . . وهو نفسه يصنع علبا خشبية جميلة للسجائر ، ويبيعها الواحدة بروبل ، وقد نقل الى هذه المدينة ثم يسأله عما يعمل . . . فيجيبه البدين بتواضع انه يشغل وظيفة مستشار سام بالحكومة وحاصل على وسام النجمتين . . . فيمتقع وجه النحيف حين يعرف انه امام احد كبار موظفى الدولة الذين يرتجف إذا زار أحدهم وزارته ـ وتذهل زوجته . . . ويزرر ابنه جاكتته بحركة لا ارادية ثم يتمالك النحيف نفسه ويبتسم ابتسامة عريضة ويقول له فجأة :

انني سعيد جدا بلقائك . . . يا صاحب السعادة !

وترن عبارة صاحب السعادة رنينا غريبا فى اذن البدين ويحس كأن حاجزاً وهميا قد انتصب فجأة بينه وبين صديق الطفولة القديم فيقول له عاتبا :

ما هذه اللهجة الجديدة ونحن صديقا طفولة ؟ لكن النحيف لا يستطيع ان

يستعيد صدق مشاعر الصديق القديم فقد أفسدها عليه احساسه بالفارق الوظيفي الكبير بينه وبين زميله السابق فيعود للحديث بنفس الابتسامة المصنوعة والخشوع الزائد . . . ويحس البدين ان لحظات الصفاء القديم قد انتهت فيصافحه وينصرف . . . ويترك وراءه الأسرة البائسة وهى فى ذهول سعيد !

× × ×

وفى كتاب «أنا والقانون والفن» لتوفيق الحكيم ، يروى أنه وهو يعمل وكيلا للنيابة فى دمنهور فى الثلاثينيات جاءت للمدينة فرقة مسرحية بطلها ممثل قديم كان معروفا باسم عمر افندى وقد سبق ان مثل مسرحيات للحكيم فى القاهرة قبل ان يتخرج ويعمل بالنيابة ، فرآها وكيل النائب العام الفنان فرصة ليعيش ليلة من ليالى الفن القديمة مع صديقه الممثل القديم ، فاختفى عن انظار رئيس النيابة لكيلا يكلفه بعمل يعوقه عن حضور المسرحية فى المساء وبعد انتهائها التقى بالممثل خلف الكواليس واصطحبه فى جولة بشوارع المدينة يأكلان السميط ويستعيدان ذكريات الفن والصداقة الفنية . . والحكيم يستحثه ان يروى له كيف اشتغل بالتمثيل . . . والممثل يحكى بتلقائية الفنان الصادق والحكيم سابح فى دنيا الفن القديمة التى حرم منها بعد اشتغاله بالنيابة وارتباطه بقيودها وتحفظها المعهود ، وكلما شاهد شرطيا قادما من بعيد مال بصاحبه الى شارع جانبى خوفا من ان يكون قادما اليه باستدعاء من وكيل النيابة ، وتكررت القصة عدة مرات حتى بدأ الشك يساور الممثل القديم فى ان يكون صديقه الحكيم مجرما هاربا من العدالة . . . والا فلماذا يفزع كلما رأى شرطيا ويفر الى الشوارع الجانبية . . . وسأله بقلق :

ما هو عملك ؟ . . فيتهرب الحكيم من الاجابة ويستحثه على ان يواصل ذكرياته الفنية ، ويعود الممثل للحديث ثم يتوقف ليسأله فى خوف :

هل ارتكبت جريمة ؟ فلا تزيده اجابة الحكيم اطمئنانا . . . فيجرى فجأة فرارا من الرجل المشبوه الغامض . . . لأنه غريب عن المدينة ولا يريد أن يقع في

أيـة متاعب ، ويجرى وراءه الحكيم يحاول طمـأنته بـلا فـائدة ، ويشاء سـوء حظ الممثل ان تمر داورية شرطـة فتراه يعدو فى فـزع فتوقفـه وتسأله عن سبب جـريه فى الشارع فى الثانية بعـد منتصف الليل . . . فينهار الممثل ويندب حظه . . . ويقسم للجاويش أنه لا يعرف ذلك المجرم المطارد ، ويضطر الحكيم للتدخل لانقاذه . . . فما ان يقترب من الـداورية حتى يـدق الجنود الأرض بأحـذيتهم ويرفعـون أيديهم بالتحية . . . للبك وكيل النائب العام . . . ويعرف الممثل القديم قصة الحكيم مع رئيس النيـابـة ويضحك لها كثيرا . . . ويطلب منـه الحكيم استئنـاف القصـة التى قطعها فزعه المفـاجىء وجريه منه . . . فيفاجأ به يقـول له بصوت مختلف وبلهجة يشوبها الاحترام الشديد :

أظن أن الوقت قد تأخر على سعادتك كثيرا الآن !

فترن العبارة فى اذن الحكيم رنينا غريبا . . أسف له كثيرا . . ويحس بأن حاجزا وهميا قد انتصب فجأة بينه وبين صديقه الممثل القديم .

× × ×

وفى بعض مذكراته روى الدكتور صبرى السوربونى انه التحق كسكرتير بالوفد المصرى الـذى سـافر لبـاريس بعـد ثـورة ١٩١٩ ليعرض قضيـة مصر على مـؤتمر فرساى، فسد المؤتمر أبوابه فى وجه الـوفد المصرى . . وتجاهلته الصحافة والدوائر السياسة . . فخرج يتمشى ذات اصيل فى حديقة لوكسمبورج . . ففوجىء برؤية مدرس مصرى مبعوث لتعلم اللغة الفرنسية ولا صلة له بالسياسة قادما وذراعه فى ذراع شيخ فرنسى عجوز وهما يتبادلان النكات والضحكات فى ألفة ، ثم انصرف الفرنسى فجاء المدرس يصافح السوربونى فسأله مذهولا :

اتعرف من هذا الفرنسى الذى كان بصحبتك فأجابه ببساطة :

انه رجل عجـوز ظريف يلتقى بى كل يـوم فى الخامسة هنا فنتجـول فى الحديقة نتفـرج على جمال الفتيـات ونتبـادل النكـات حـولها ولـه تعليقـات ذكيـة ولاذعـة تضحكنى كثيرا !

فقال له السوربوني :

انه اعظم أديب فرنسي على قيد الحياة انه اناتول فرانس . . ومقالة واحدة منه تكفى للفت الأنظار لقضية بلادنا فحاول ان تقنعه بعدالتها !

وفى اليوم التالى جاء الرجل العجوز فى موعده فسأل صديقه المصرى عن اخبار الجمال هذا المساء !

فانتفض المدرس يحييه باحترام شديد ويعتذر له عن جهله السابق به . . ويقول له أنه لم يكن يعرف انه ينال شرف صحبة اعظم أدباء فرنسا المعاصرين!

فاذا بأناتول فرانس يتغير وجهه . . ثم يقول له بأسف : خسارة لقد كنت استمتع بصداقتك لكنها قد انتهت الآن فوداعا ثم انصرف ولم يعد للحديقة ولم يلتق بالمدرس المصرى بعد ذلك مرة اخرى . . فلقد أفسد عليه ذلك الحاجز الوهمى ــ الذى انتصب فجأة بينهما ـ البساطة والحرية التى كانا يتعاملان بها . . ويستمتع بها على وجه الخصوص الأديب العظيم ، ورغم انه لم ير المدرس مرة اخرى فلقد كان ذلك فيما يبدو بداية لاهتمامه بالقضية المصرية إذ لم يلبث أن اصدر كتاب صوت مصر ودافع فيه بحرارة عن حقها فى الاستقلال عن انجلترا .

× × ×

ترى ماذا يجمع بين هذه القصص الثلاث ؟

يجمع بينها فى ظنى فى شيء مشترك هو أن الإنسان لايكون مع اصدقاء الطفولة والصبا وأصدقاء مراحل النضج هو نفسه فى بساطته وتلقائيته وربما فى صدق مشاعره اذا بالغ فى الاحساس بأنه أقلّ جدارة بصداقتهم لمجرد اختلاف الحظوظ والمراتب بينه وبينهم ، فالإنسان يحتاج الى الصداقة الحقيقية والى دفء مشاعر الأصدقاء القدامى لأنهم جزء من حياته يحس بالخواء النفسى اذا افتقده بغض النظر عن حظوظهم فى الدنيا .

وانت صديق ممتاز لصديقك بصدق مشاعرك تجاهه وبالفهم المشترك الذى يجمعكما وبالراحة النفسية التى تشيع فى نفسيكما عند اللقاء وبحرصك على هذه

الصداقة . . . وبقيمك الأخلاقية والدينية وخصالك الجميلة سواء أكنت وزيرا أم خفيرا أو كنت الطرف الذى سخت عليه الحيـاة . . أو الجانب الذى لم ينل منها الا القليل لسبب هـام هو انك انسـان . . وكل انسـان جديـر بالاحترام وبـالصداقـة لسجـايـاه واخـلاقـه قبل أى شىء آخـر فـلا تضع نفسك دون منـزلتك لمجـرد ان حصانك ما زال يجرى بطيئا فى سباق الحياة ذلك أنك ان لم تعرف لنفسك حقها فلن يعرفـه لك أحد الا المنصفون وحـدهم . . وما اقلهم فى هـذه الحياة الصاخبـة وما أندرهم حين يتلفت الانسـان حوله باحثـا عن راحة القلب والنفس مع من يطمئن اليهم بلا هواجس ولا ظنون فيطول بحثه قبل أن يجد بغيته الثمينة .

والقضـــاء وراثـــى !

ليست شكوى والله . . وانما مجرد فضفضة معك ارجو ان تتقلبها بصدر رحب فمنذ شاء قدرى أن اكتب باب بريد الجمعة فى الأهرام منذ ٩ سنوات . . وشاء الله ان يلقى بعض القبول عند القراء وانا ادفع ثمن هذا القبـول من صحتى واعصابي وبريق عينى راضيا بما ادفع وسعيداً بما أحصد .

فلقد تغيرت أشياء كثيرة فى حياتي خلال تلك السنوات . فقبل ان اكتبه كانت قراءاتى فى الأدب العربى والعالمى والتاريخ والفلسفة اكثر منها فى أي مجال آخر . . فأصبحت قراءاتى فى الفقه والشريعة وعلم النفس وقانون الأحوال الشخصية اكثر منها فى بـاقى فروع المعرفة . . ان لم تقتصر عليهـا بحكم الضرورة ، وبعد ان كنت اتابع آخـر اتجاهات المسرح الحديثـة . . واشهد كل عـروضه الجادة وغير الجادة فى مصر اصبحت زيارة المسرح ترفا لا يسمح بـه وقتى اللهم الا مرة أو مرتين فى لندن خـلال زيـارتى السنـوية لها ، وبعـد ان كنت زبـونـا دائما فى حفـلات الاوركسترا السيمفـونى ووجها مـألوفـا فى حفـلات الموسيقى العربيـة لم اعـد اذكـر آخر مـرة حضرت فيهـا هـذه ولا تلك لأن مشاكل الانسـان مع اخيـه الانسـان وهى صلب رسائل بـريد الجمعة ـــ لم تدع لى فرصـة لحضورهـا حتى انى لم ادخل مبنى الأوبرا الجديدة حتى الآن على كثـرة ما تلقيتـه من دعوات لحفـلاتها . . ومع انى كنت من رواد الأوبرا القديمة الدائمين فى صباى . . وشبابي «الغابر» .

وبدلا من انطـلاقى القديم وقلقى الـدائم الذى كان لا يسمح لى بـالجلوس فى مكان واحد لأكثر من ساعة . . فاذا خرجت لقضاء سهرة مثلا لم أطق قضاءها فى مكان واحـد وتنقلت بين عدة اماكن ومحلات عـامة كأنى مكلف بـالتفتيش عليها

وليس بقضاء السهرة فيها ، اصبحت حبيس الغرف المغلقة فى مكتبى بمسكنى ومكتبى بعملى اتنفس الهواء الثقيل المشبع بسحابات دخان سجائر المهمومين وزفرات الحائرين . . واصبح مكتبى لا يخلو من البشر كل ساعات وجودى فيه حتى ليتعذر على احيانا ان اجرى مكالمة تليفونية فى بعض شئونى الخاصة . .

كما اصبحت ولافخر من اكبر مستهلكى علب المناديل الورقية فى الأهرام . . حيث اعتدت اذا لمحت بوادر الدمع تتجمع فى عيني زائرى او زائرتى من رواد بريد الجمعة ان أضع العلبة أمامه لأدعوه ليتخفف بلا حرج من دمعة فى مناديلها . . فيستجيب أو تستجيب . . واحترم دموعها الى ان تتمالك نفسها وتعود لاستكمال قصتها أو مأساتها غالبا ، ففى مكتبى لا أسمع الا المآسى . . ولا ارى الإنسان إلا فى ضعفه . . أما اذنى فقد أصبحت اعانى من التهاب متكرر فيها من كثرة ما تلتصق بسماعة التليفون لاسمع هموم المهمومين واجتهد فى ابداء الرأى فيها واما صداعى فلقد أصبح زائرى اليومى .

ومشكلتي هى أن بعض القراء من اصدقاء بريد الجمعة لا يفضلون ارسال مشاكلهم الىَّ على الورق لأقرأها وافكر فيها فى هدوء ثم ابدى رأيى بشأنها بروية ، وإنما يفضلون ان يعرضوها على مباشرة ويطلبون مشورتى فيها .

والحق انى لا أضيق بأى مهموم يريد أن يستشيرني فيما يؤرقه ، لكنى أشكو فقط من أن يومى لا يتسع ابدا لكل ما أريد أن أصنعه فيه من اداء لواجبى فى بريد الأهرام اليومى ومجلة الشباب ومسئوليتى فى الأهرام ثم مع أصدقائى على الورق من أصحاب المشاكل والهموم الذين يحسنون الظن برأيى ويطلبونه فى مشاكلهم .

والذهن يا صديقى كالجسم لا بد له من أن ينال حقه من الراحة . . لكى يستطيع أن يؤدى مهمته بكفاءة ، وأنا أعتبر الرأى شهادة اسأل عنها أمام الله وليس امام من يستفتينى فى أمره . . لهذا فلا يعنينى فى كثير أو قليل إن يرضيه رأيى أو يغضبه وانما كل همّى ان يرضى ربى ويرضى الحق والعدل كما اتصورهما وفى حدود اجتهادى . . ولا الزم احدا برأيى أبدًا . . . واطرب لعبارة الإمام أبى

حنيفة «قولنا هـذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جـاءنا بأحسن منه فهو أولى بالاتباع منا» وليس من حسن اداء الأمانة ان اتصدى لمهمة وأنا غير مهيأ لها جسديا وذهنيـا وبعـد ان استنفدت كـل قدرتى على التركيـز والتفكير . . فـاذا صـادفنى صاحب مشكلة يطلب رأيى وأنا فى هذه الحالة فان هذا هو عذابى الخاص الـذى لا يـدرى به أحـد . . وهـذه هى اللحظــة التى توسـوس لى فيها النفس الأمــارة بالسـوء بالضيـق مما اجدنى مضطراً اليه ولسـت قادرًا عليـه . . لكنى سرعان مـا أرد نفسى الى رشـدها واذكّـرها بأن لكـل مسئولية تبعاتها . . وان هذه هى تبعات الطريق الذى اخترته لنفسى بارادتى وراضـيا بقـدرى وقضـائي واردد دائما شطـرة بيت الشعر الصـوفى الجمـيل التى احبـها :

شوقى امامى . . والقضاء ورائى !

وهـو ليس قدرا فقط . . وانما فضل وكـرم انعم بهما علىّ ربى وارجو أن أكـون جديرا بنعمته . . ، فهؤلاء الـذين يلجأون الى طلبا لمشورتى . ويفتحون لى قلوبهم ويطلعوننى على ادق اسرارهم الشخصيـة انما يتفضلون على بثقة غـالية فى شخصى الضعيف على غير سابق معرفة . ويتصورون أن رأيى سوف يفيدهم فى مشاكلهم ، مع انى لا أدعى الحكمة . . وأومن دائما بأن الناصح قد لا يكون بأحكم من طالب النصيحة . . لكن المشكلة ان الانسان حين يكون مهمومـا بأمر يشغله يحتاج أحيانا الى من ينظر الى مشكلتـه من خارجهـا بعيدا عن التأثـر بانفعالاتها ، وهـو غالبـا قد يكون قد توصل الى هذا الرأى فيما بينه وبين نفسـه لكنه فى حاجة لمن يؤكد له صحة قـراره ، كما ان المشكلـة ليست فى الـرأى وانما فى الاستعـداد النفسى لـلاستماع للهمـوم . . وكل انسـان يستطيع ان يفعل ذلك اذا قبل ان يعطى من وقتـه وفكـره واعصابه للآخرين .

لهذا فانى لا أشكو اليك قدرى ولا القضـاء الذى ورائى وانما اشكو اليك فقط قلة ساعات اليوم التى لا تزيد بكل اسف على ٢٤ ساعة ، وزغللة عينى ومسارعة الصداع الى رأسى كما يسـارع المحبوب الى لقاء حبيبتـه كلما طالت فترات الاستماع

والتفكير . . او كلما فاجأني زائر مهموم بغير موعد . . . فهذه هي فقط اللحظات التي توسوس لي فيها النفس الامارة بالسوء بوسوساتها . . فاحاول اولا اقناعه بتأجيل ابداء رأيي في مشكلته الى ان استرد لياقتي الذهنية فاذا قبل شكرته واذا اصر سلمت امري لخالقي وطلبت فنجان القهوة السادس واستعذت بالله من الزلل وسمعت وتكلمت بما يلهمني به الله . . ثم ينصرف شاكرا . . ولولا الخجل لطلبت منه قبل ان ينصرف ان يساعدني على الوقوف على قدمي لاغادر المكتب قبل ان يؤخرني زائر جديد ولم يعد في الصدر مكانا لهمٌ جديد فاذا شاء حظي بعد ذلك وكثيرا ما يشاء أن أجد من يتربص لي بجوار السيارة عند باب المبنى ليحدثني في مشكلة لا يستطيع الانتظار عليها فانها ستكون غالبا ليلة ليلاء!

أما فيما عدا ذلك فأهلاً بالجميع . . ما دامت الصحة والوقت يسمحان بأداء هذا الواجب الذى يستطيع كل انسان ان يتعبد به الى جانب صلاته . .

فاذا كنت قادما ذات مساء للأهرام ولدى زوار كثيرون بمواعيد سابقة ثم وجدت ابا فاضلا يستنجد بي في مشكلة عائلية فلا بأس من الاعتذار لبعض الزوار عن التأخر في استقبالهم بسبب هذا الزائر الطارئ ، ثم اجلس معه ساعتين وهو يتحدث ويزفر ويبثني همه بابنته الجامعية الجميلة الرشيدة العاقلة التى احبت جارها وارتبطت به عاطفيا ٤ سنوات وتصر على الزواج منه بالرغم من انه محدود الدخل وشاء له سوء حظه ان يتعثر في تعليمه ، فاسمع منه واستجيب لرجائه في أن استقبل ابنته بعد يومين فتجيء معه . . واجلس معها على انفراد واسمع منها ثم اجمع بينها وبين ابيها واصارحه برأيي . . وهو ان من الحكمة والدين أن يوافق على زواجها وأن يؤدى واجبه كأب معها فهذا اصون لابنته وارعى لحقوقها عليه وحقه عليها . . فهي لا تريد ان تخرج عن طاعته ولا تريد أن تتنازل عن حبها . . وان تنازلت فلن تقبل غيره . كما أنها رشيدة وعاقلة وليست طائشة وارتباطها العاطفي يزيد على ٤ سنوات مما يقطع بأنه ارتباط جاد وليس عابرا ، ثم أولا وأخيرًا لاننا الآباء والآباء والامهات هم الرحماء . وينصرف الاثنان . . والأب يعلن موافقته

النهائية لكنه حزين والابنة سعيدة لكنها لا تخلو من اشفاق على ابيها .

ولا بأس أيضاً من استقبال هـذه الزوجة الشابة المتدينـة مع شقيقها . . بعد ان هجرت عشهـا لمدة ٣ شهور وفشلت كل محاولات اقناعهـا بالعودة والـرجوع عن طلب الطلاق فاسمع لها ، ثم يأتى زوجها فاسمع له على انفراد . . . ثم اطلب من الشقيق أن ينتظـر فى غرفـة اخـرى لأجمع بين الزوجين واتحدث اليهما . . ثم اركـز حديثى على الزوجة وهى ذات دين واجيـب عن سؤالها الحائر هل ما شكت لى منه يبرر لها الطـلاق بغير ان تظلم زوجهـا ، ، بأنــه لا يــبرره اذا كـان فى مقــدوره الـرجوع عنـه . . وهـو يبدى كل استعــداده لــذلك . . . ثم أتحــدث اليهـا طــويلاً . . . وانتظــر قــرارها خـائفا كمن ينتظـر حكم الإعدام . . . وأتنفس الصعداء حين يكون قرارها هـو فتـح صــفحة جـديدة معــه والعـودة الى عشها المهجــور . . . ثم اســتدعى شقيقهـا وأبلغه بقرارها فيــبدى دهشة كبيرة . . . وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

ومن ذلك كثير وكثير . . . ولست نادما على الســاعات التى اقضيها مع هؤلاء المهمومين ويخيل إلى أنها الساعات أو اللحظات القليلة المثمرة فى حياتى وما عداها فخواء . . .

فان شكـوت لك من شىء فليس من هؤلاء . . . وإنما ممـن يلح على بالاستماع اليه بعد أن استنفدت كل قدرتى على الاستماع والتفكير . . . وممن يفاجئنى بطلب الاستماع اليه والتفكير معه . . . وانا فى معسكـر الاعداد الخارجى الذى أقيمه كل صيف لمدة ٣ أسـابيع بين لندن وباريـس كما تفعل فرق الكـرة الشهيرة ، وبناء على نصيحة طبيب صديق لى .

ففى هذا «المعسكر» وهو اجازتى الوحيدة القصيرة أتوقف تماما عن التفكير فى همومى وهموم الآخرين طلبا للصحة النفسية ولاستعادة نشاطى استعدادا للموسم الجديد ! ولولاه لحللت ضيفا على عيادات الطب النفسى مريضا بالاكتئاب .

لهذا فقـد انـزعجت بشـدة حين ذهبت الى مكتب الأهـرام ببـاريس فى الصيف

الماضى لموعد مع صديقى شريف الشوباشى مديـره ، فوجدته قد اعد لى «مفاجأة» صغيرة . . سيـدة مصرية مقيمـة بباريـس علمت بوجـودى من المكتب فطلبت ان تقـابلنى لتروى لى مـآساتها الـداميـة . . . ومع ذلك فقـد انفردت بها ٣ سـاعـات وسمعت منها ما يـوجع القلب . . . وقدمت لها علبة المناديل الـورقية فاستهلكت نصفها ثم «خطبت» فيها لمدة ساعة كاملة وانا الح عليها بأن حل مشكلتها الوحيد هو أن ترحم نفسها من تجرع هذا الهوان وهـذا الايذاء من مطلقها الذى تعيش معه فى شقة واحدة بأمر الشرطة الفرنسية إلى أن يفصل القضاء فى القضايا المعلقة بينهما، وتعود لمصر ولأهلها بكـرامتها ما دام زوجها يصر على ألا يعطيهـا حقوقها إلا إذا غادرت الشقة وعادت مع طفلها لمصر.

وافـرغت فيهـا كل مـا فى صـدرى حتـى فـوجئت بها تنهض وهى تبلغنى أنها ستتصل بالمحامى لتبلغه باستعدادها للتفاهم مع زوجها على العودة لمصر وتقاضى حقوقها منـه وديا . . وسر صديقى شريف سامحه الله بهذه النتيجة وسـاعدها على اتمام اجراءاتها ولكن بعد أن ضاع منى يوم من أيام اجازتى القليلة .

أمـا صديقى الآخـر الذى يـؤجر لى كل سنـة شقة صغيرة فى لنـدن . . . ثم لا يبخل برقم تليفونها على من يطلبـه من المعارف . . فقد أفسد علىَّ صبـاحا جميلاً فى لندن نهضت فيه من نومى مبتهجاً فصنعت قهـوتى وجلست أمام التليفزيون أتابع برنامج صباح الخير يا بريطانيا وأنـا طروب باحساس الاجازة والفراغ والدعة فاذا بجرس التليفـون يرن : فلان ؟ نعم . أنا فـلان من ليفربول علمت بـوجودك من صديقك فلان أرجو ألا أزعجك بمشكلتى لكنـى مثقل بالأحزان ولا أحد يسمع لأحد هنا . . وزوجتى تنغص على حياتى . . وتريد كذا . . وكذا فهل هذا يرضى اللـه . وما هـو حكم الشرع فيها وكيف أتصرف معهـا . . و . . وتستمر المكـالمة سـاعتين يتخللها بكـاء يمزق القلب . . ولست اتمزق لشىء أكثـر مما اتمزق لبكـاء الرجل خاصة اذا كان شيـخا كبــيرا ثم تتـكرر المكـالمة طـوال الأيام العشرة التى اقضيـها فى لندن . . ويأتينى غيرها من «مكـارم» صديقى ومع ذلك فانى سعيد بها

اختاره لى القدر واخترته لنفسى ودعائى الدائم هو «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» .

وما دامت فى الصحة بقية . . وفى الذهن ذؤابة تتراقص . . فلا نامت أعين الجبناء إن تقاعستُ عن قبول قدرى الذى ورائى . . أو قصرت فى السعى الى «شوقى» الذى أمامى .

فقط أريد منك خدمة صغيرة . .

إذا رأيتنى ذات مرة اجرى فى الشارع أسابق الريح وطرف جاكتتى يتطاير فى الهواء ورائى ومن خلفى رجل أو سيدة تطاردنى بكل قوتها فلا تظن بعقلى الظنون . . ولا بشرفى أيضاً فتعتقد مثلاً أنى لا سمح الله قد خطفت شيئا ممن يطاردنى .

انها فقط حالة الواحد فى المليون التى اخشاها إذا صادفنى فى الشارع مهموم وقد نفدت كل قدرتى على الاستماع والتفكير وأصر اصرارا شديدا على أن أسمعه رغم فشل معسكرى الخارجى فى تلك السنة !

هذا هو ما أطلبه منك فقط وشكر لك أن سمعتنى بصبر ولم تطلق ساقيك للريح بعد ! ■

باريس .. الحب .. والعذاب !

■ ها هي باريس تبدو من نافذة الطائرة لوحة سيريالية جميلة نابضة بالحياة والحركة ! للمرة العاشرة أو الحادية عشرة لم أعد أذكر على وجه التحديد . . لكنني أعرف فقط أنها بالنسبة لي قد أصبحت ضعفي الذى أغالبه فيغلبني . . وخطيئتي التي أدعو ربي أن يغفرها لى فلا يغفرها . . وأظل معذبا بالبعد عنها إذا ابتعدت ولابد أن أبتعد . . وبالقرب منها اذا اقتربت وقليلا ما أقترب !

إنها إمرأة ساحرة لعوب كثيرة العشاق لا تصد عشاقها عنها ولا ينالون منها مأربهم . . فيظل حبها ملتهبا في القلب لا يطفئه وصال ! . . وما من مرة غادرتها فيها إلا وعاهدت نفسى ألا أعود إليها مرة أخرى ، فقد عرفتها بما فيه الكفاية . فلا تمضى ستة شهور على رحيلى عنها حتى أجدنى قد بدأت أعيشها في خيالى . .

إنها ضعف العاشق . . واستكانة المغلوب على أمره . . ومكابرة من يتمنى فى اعماق نفسه ان يتخلص من عشقه المعذب ولا يستطيع فيتساءل مجيبا نفسه بغير سؤال «من قال إنى قد كرهتها؟» .

وفى كل مرة اصل فيها اليها تغادر السيارة مطار شارل ديجول فأتأمل الطريق الى المدينة بحنين غريب . . وأترقب ظهور اول شوارعها . . واول مقهى من مقاهيها وترن فى اذنى كأنى أسمعها بوضوح الاغنية الشهيرة : صباح الخير يا باريس . . او بونجور باري . .

أبحث عن فندقي الصغير بالقرب من الشانزليزيه الشهير وأتوجه اليه غالبا بغير حجز مسبق . . وأتلقى بعد التحية المعتادة نفس النظرة اللائمة من صاحبه لانى لم اتصل به تليفونيا مسبقا وأحرص على حجز غرفتى قبل وصولي بوقت كاف كما

يفعل المتحضرون ، لكن لا بأس فسوف يجد لى غرفة لليلة أو ليلتين قبل ان تخلو لى غرفة مناسبة ! والغرفة المناسبة لى هى ان يكون بها مكتب ملائم يتسع لكتبى وأوراقى التى احملها معى اينما سافرت كأنما كتب علىَّ الشقاء بها فى اركان الأرض الأربعة . . ثم أن تطل الغرفة على الشارع لأرى البيوت الفرنسية بطرازها المعمارى القديم من حين الى حين ولا يهمنى بعد ذلك شىء آخر فكل الغرف عندى سواء . . وكلها ضيِّقه بلا تمييز كأنما اقتطعت من لحم حى وليس من جماد . .

لم أسأل نفسى ابدا لماذا احببت باريس ولم احب جنيف مثلا مع أن جنيف أهدأ وأنظف وأجمل ، ولا لماذا احب لندن بسمائها الضبابية وشوارعها الكئيبة فى حين لا يحبها كثيرون غيرى . . فان كان لحبى لباريس ألف سبب فلكرهى لها ان اردت ان اكرهها ألف سبب آخر يكفى كل منها لأن اغاضبها واتحرر من عشقها . . ولكنه الخائن الذى فى صدرى والذى يغفر لها كل ما تفعله بى ويلتمس لها فيه العذر . . وسأروى لك فصلا واحدا من فصولها الباردة معى !

فلقد جئتها هذه المرة معتزماً ألا أقيم فى فندقى المعتاد . . وأن ألبى دعوة صديق مصرى يتنقل بين فرنسا وامريكا للاقامة فى شقة صغيرة له فى ضواحى باريس خلال فترة وجودى بها . . وغيابه هو فى امريكا . . وقد سعدت بالدعوة ووجدتها فرصة للانفراد بنفسى فى شقة هادئة بعيدة . . وكلما نازعتنى نفسى الى الخروج . . ذهبت الى وسط المدينة او حججت الى مزاراتى فى باريس كمتحف اللوفر ومقهى كلونى فى الحى اللاتينى وساحة السوربون او طفت ببيت فولتير ، او استمتعت بالجلوس فى مقهى «الدوم» فى حى هونبارناس الجميل الذى كان يجلس فيه توفيق الحكيم . . وجلس فيه عدد كبير من اكبر ادباء وفنانى فرنسا . . ويزين المقهى جدرانه الداخلية بصورهم وهم جلوس فى المقهى من فرانسوا مورياك الى اندريه جيد وجان انوى وبيكاسو . . او بحثت عن المقهى الذى كان الاديب والفيلسوف الوجودى جان بول سارتر يجلس فيه مع سيمون دى بوفوار والى جانبه جهاز التليفون الخاص به يتلقى عليه مكالماته او تمشيت على ضفة نهر السين فى الحى

الـلاتينى اتأمل اكشـاك الكتب القديمـة المعلقـة على جـدار طواره واشترى المزيـد والمزيد من لـوحاتها الفنيـة المنسوخـة عن لوحـات فنية عالميـة شهيرة كما افعل كل مرة . . وكـان صديقى قـد ترك لى مع صديق آخـر مقيم بباريس نسخـة من مفتاح الشقة في مظـروف يحمل عنوانها واسم وعنوان وتليفـون صديق ثالث لـه بباريس لديه نسخة اخرى من المفتاح اذا ما واجهت اى مشكلة . .

ووصلت الى بـاريس فى موعـدى فوجدت صـديقى شريف الشـوباشى مـدير مكتب الأهـرام بباريس فى انتظـارى ومعه المظـروف بالمفتـاح والعنوان ، وحـاول صديقى شريف ان يصحبنى معه الى المكتب لينهى عمله فيـه ثم يدعوني للغداء فى احد مطاعم الشانزليزيـه كما اعتاد ان يفعل فى كل مرة لكنى كنت اكثر اصرارا هذه المرة على ان يكون يـومى الأول فى باريس للراحـة واستعادة النشاط . فـاستجاب لرغبتى لأول مـرة ، وغادر السيارة امـام المكتب وطلب من السائق ان يحملنى الى الواحة الصغيرة التى تنتظرنى لافتح حقيبتي ثم اغفو لساعة وساعتين قبل ان نلتقى فى المسـاء . . وشكـرت له فى اعماقى استجـابتـه لالحاحي هـذه المرة . . وانطلقت السيـارة فى شـوارع معذبتى تبحص عـن العنوان الجديـد . . وبعـد تبحث قصير توقفت امام عمارة حديثة . . ونزلت ومعى سائق السيارة لنتأكد من الشقة ثم يحمل الىّ حقيبتى بعـد ذلك ، واخـرجت المظـروف وتـأكـدت من رقم الشقـة . . ومن وجود المفتاح به وحملنا المصعد الى الدور السادس وبحثت عن الشقة الى ان وجدتها ثم وضعت المفتاح في قفل الباب . . وأدرت المفتاح فانفتح الباب رويدا رويدا فاذا بى اجد شـابا فـرنسيا جـالسا على مقعد صغير امـام مائدة خشبيـة صغيرة . . وهو والمقعد والمائدة كل الاثاث الـذي يبدو فى الصالة . . والشـاب الجالس لاويا عنقه تجاهى ينظر الىّ مـذهولا وأنا أرقبه فى صمت ودهشـة لمدة لحظات . . قبل ان افهم الموقف واعرف انى قد جئت فى مـوعد غير ملائم وان صديقى لابـد انه قد اعطى مفتاحه لهذا الشـاب الفرنسى ليقيم في شقته خلال سفـره فأدى سوء التخطيط الى هذا الموقف المحرج ويغير ان استوعب الموقف تمامـا وجدت نفسى اقول للشاب :

بونجور موسييه ! فيجيبنى وهو لا يـزال متجمدا على مقعده لافتا عنقه تجاهى . . فاتحا فـاه فى دهشة : بونجـور موسييه ! وانتظـرت ان يتكلم فلم يتكلم . . واظنه انتظرنى ان اتكلـم فلم اجد ما اقـوله . . لكن عقلى بـدأ يتحرك بعـد قليل فقررت التخلى عن حلم الاقامـة فى شقة صغيرة فى باريس والعـودة على الفور للبحث عن مكان لى فى فندقى المعتـاد . . لكن لماذا يظل هذا الشاب لاويا عنقـه تجاهى كأنما قد تجمد على هذا الوضع الغريـب؟ . . ولماذا لا يحاول ابداء اى تفسير لوجوده فى شقة صديقى الذى اكد لى انها ستكون خالية في هذا الوقت ؟ وفقدت الأمل فى ان يخرج الشاب عن جموده فـاستدرت للخروج مع مـرافقى معتذرا عن مجيئى فى وقت غير مناسب وودعت الشاب قائلا : اوريفوار موسييه ! فأجابنى من «موقعه» التاريخى وبغير تفكير ايضـا : اوريفوار مـوسييه ! ثم فجأة حـدثت المعجزة وتحرك الشـاب واقترب منا مترددا ثم تكلم بصوت مرتجف . . فاذا بـه لا يعرف صديقى صاحب الشقة ولا هو ضيف عليه . . وانما هو فرنسى يجلس فى شقته الخاصة التى يقيم بها منذ ٧ سنوات ، وقد فوجىء بباب شقته ينفتح ! .

سمعت كل ذلك وأنا ذاهل عما يقول . . وبعد لحظـات تخيلتها سنوات نظرت الى المظروف الـذى يحمل رقم شقة صـديقى فوجدتـه ٦٤ ونظرت الى الـرقم الذى يحمله باب الشقـة التى فتحناها منذ لحظات فاذا بـه ٦٢ ! اذن فنحن لسنا في موقف حرج بسبب سوء التخطيط وتضارب موعد زيـارتي مع موعد زيارة هذا الشاب او اقامتـه بالشقة . . وانما نحن نـواجه كـارثة ! فقدت قـدرتي على الكلام . . فتكلم مرافقى . . وشرح لـه اننا قـادمان من المطـار مباشرة الى هنـا واننا قد أخطـأنا رقم الشقـة وسنخرج الان للـذهـاب الى الشقة الاخـرى . . الخ . وتـوقعت الا يقتنع الشـاب الفرنسى بشىء من ذلك وان يسرع لـلامساك بتـلابيبنا ، لكن ولـدهشتى الشديدة سمعت مرافقى يقول له : اوريفوار موسييه والشاب يجيبه بنفس الذهول : وداعا ياسيدي!

ثم خرجنا . . كيف خرجنا من هذه المصيدة بلا متاعب مع الشرطة؟ لا أعرف

وبحثنا عن الشقـة رقم ٦٤ وأدرنا المفتـاح في بابها فكـانت المفاجأة الاخـرى انه لا يفتحه بل ولا يدخل فيه من الاصل !

وأسرعنا بالفرار قبل ان يفيق الشاب من ذهوله ويستوعب حقيقة المشكلة . . وعدت الى فندقي الصغير فائزا من الغنيمة بالنجاة واستغرقت لحظات فى النوم ثم تنبهت على صوت جرس التليفـون يرن بجوارى . . فرفعت السماعـة وأنا أتثاءب وأتساءل عمن عسـاه قد عرف بـوجودى فى هـذا الفندق بهذه السرعة . . فـاذا به الصديق المشترك الذى يحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة وقد ابلغه مرافقى فى المغامرة الخطرة بما حدث فخاطبنى متعجبا كيف لم يفتح المفتـاح باب الشقة وفتح بدلا منها شقـة اخـرى خطأ؟ . ومحاولا تفسير ذلك بأن صديقـه قـد صنع تلك النسخـة من المفتـاح التى تركهـا لى بالمظـروف قبل سفـره ولم يسعفه الـوقت لتجربتهـا . . وان المفتــاح الاصلى معــه الان وســـوف يأتى الى الفنــدق الان لكـى يحمل حقيبتي ويصحبنى فى سيارته الى الشقة ويعطينى مفتـاحها السليم فلم اشعر بنفسى إلا وأنا اصرخ فى التليفون معتـذرا بشدة عن عـدم قبول عرضـه ورافضا بـاصرار مغادرة فندقى الى تلك الشقة . . وعبثا حاول ان يعـرف منى السبب فلم أبح له به وكتمته فى صدرى ولا عجب . . إذ هل انا مجنون او شجاع الى حد ان اقيم في شقة تلاصق شقة شاب فـرنسى تساوره الشكوك فى ميولى الاجـرامية تجاه شقته ! أو على الأقل سـوف يصادفنى داخـلا أو خـارجا فيسألنـى كيف حصلت على مفتاح شقتـه . . ويطالبنى به وربما من بـاب الاحتياط استدعانى للشرطة لكى اوقع لـه تعهدا بعدم وجود نسخ اخرى من مفتاح شقته .

وسعـدت رغم كل ذلك بـاقامتى هـذه المرة ايضـا فى باريس . . رغـم التهـاب اسعارها . . وبرودة جوها التى فاجأتنى على غير انتظار فى نهاية شهر ابريل . .

نماذج .. من البشر - ١ -

افكر جدياً فى عرض نفسى . . على طبيب نفسى !

إنى احب أشخاصاً لم اعرفهم ولم ألتق بهم وليسوا من الاعلام او المشاهير الذين قد نقرأ عنهم فنحبهم بلا سابق عرفة . . فهل عندك تفسير لهذه الحالة؟ سوف تسألنى بالطبع كيف اذن احببتهم بغير أن تعرفهم فأقول لك اننى غالبا اكتشفهم فى بطون كتب السير الذاتية للمفكرين والأدباء فأتوقف عند بعض النماذج البشرية التى التقوا بها فى رحلة الحياة وتأثروا بها فأسرع بالتقاطها وتسجيل ملامحها فى اوراقى واحس بعلاقة انسانية تربطنى بهم تتراوح عادة بين الاعجاب بهم . . والعجب منهم . . وحين جلست لأكتب مقالى هذا تراءت لى بعض هذه النماذج ففكرت فى ان اقدمها اليك .

واحد منهم لم اعد اذكر الآن اين قرأت عنه لكنى ضممته الى قائمة اصدقائى منذ زمن طويل اسمه الشيخ حسن الطويل وكان من علماء الأزهر فى اواخر القرن الماضى . . ومن العلماء المتنورين التقدميين فى وقت يغلب فيه على الأزهر الجمود . . وكان يقرأ الفلسفة وعلى معرفة بالرياضات ويحل لطلبة دار العلوم ما يستعصى عليهم حله من التمرينات الهندسية وكان ذكيا وحكيما وذا نظرات صائبة فى الحياة وعلى معرفة بالدنيا والسياسة وشجاعا فى الرأى يتكلم بما يعتقد ولو ادى ذلك الى فقده لمنصبه وكان معتزاً بنفسه اعتزاز العلماء الأصلاء بعلمهم رغم فقره وزاهدا فى الدنيا يرتدى قفطاناً من البفته الرخيصة وجبة من نفس القماش . . وينبهه زملاؤه ذات يوم الى أن على باشا مبارك وزير المعارف سوف يزور دار العلوم ويرجونه ان يرتدى ملابس لائقة بالاستقبال فيغضب لكرامته ويقول لهم : اذن

سأبعث لكم بجبة من الصوف وقفطاناً من الحرير ليكونا فى استقبال الباشا . . أما اذا اردتم حسن الطويل فهذه هى ملابسه ! وكان لو دعى إلى موائد الأغنياء فى رمضان لا يذوق منها إلا الفول المدمس ويصادق صاحب مقهى بلدى من جيرانه ويخلص كل منهما الود للآخر . . ثم يطرد من منصبه بدار العلوم بسبب كلامه فى السياسة فينقطع مرتبه وهو مورده الوحيد . . فلا يتردد صاحب المقهى الشهم وهو أيضاً من أصدقائى فى ان ينهض لأداء واجبه كصديق ويقوم بالانفاق على الاسرتين معا ويبعث بصبيه كل يوم ليشترى لوازم بيته وبيت صديقه بالتساوى ، ويقبل الشيخ مساعدة صديقه لأنه ليس بين الأحباء حرج فى حين يرفض مساعدة اثرياء عصره لأنها اعانة تأباها نفسه الحرة كعالم ثم يعود الشيخ إلى عمله فإذا قبض مرتبه سلمه لصديقه بأكمله لينفق منه على البيتين كما كان يفعل وهو مطرود . . ويصر على ذلك لفترة مساوية تماما لشهور الأزمة .

ويواصل إلقاء محاضراته فى الأزهر فى الفلسفة والمنطق ويحضر دروسه نخبة من التلاميذ من بينهم الإمام محمد عبده ، ويتهمه المتحجرون بالزندقة هو وتلاميذه فلا يأبه لهم ويطالب تلاميذه بألا يلقوا إليهم بالا وبأن يواصلوا طريق المعرفة بلا خوف من اتهام وبأن يحكموا العقل دائماً فى كل ما يعرض لهم فلا يقبلوا مما يقرأون إلا ما يقبله ويرفضوا ما يرفضه . . ولو كان مطبوعاً بماء الذهب . . ويضحك من اعماقه حين يروى له الإمام محمد عبده انه غضب في شبابه على كتاب من الكتب الصفراء قرأه ولم يعجبه فأوقد فيه النار وطبخ به عدسا فكان ألذ عدس أكله فى حياته . . فيقول له الشيخ : اتعرف لماذا كان شهياً . . لأنه طهى بنار الجهل !

أما هذا الصديق فأمره عجيب حقاً . . فقد تعرفت عليه من ابنه فى كتابه الفريد «سجن العمر» . . فهو المستشار اسماعيل الحكيم والد الأديب الكبير الذى ظلمته جائزة نوبل وتجاوزته . . توفيق الحكيم وقد رسم له الأديب الكبير صورة فريدة كما يكتب الأدباء عن شخوص حياتهم بلا حرج فقد كان صاحب خبرات عجيبة ومتنوعة فى كثير من مجالات الحياة ويحرص على ان يتغلغل فى تفاصيل الأشياء كأن

كل مـا يصادفه فى الحيـاة قضية عليـه ان يدرس كل جـوانبها قبل ان يصـدر الحكم فيها . فهـو يعرف بالضبط كم طوبـة تلزم لبناء غرفـة من حجم معين ، وكم كيلو من البـذور تلـزم لـزراعة فـدان بـالقطن أو القمح . . ويقـرأ فى القـانـون والطب والأدوية والنجـارة والحدادة والعطارة واللغـة العربيـة والنحو والشعـر وقواعـده وبحوره ، وفى شبابه ابتكر سيجارة محشوة بأوراق شجر الفاكهة بدلاً من التبغ ! . . ويحمل سـاعة يـد يقدمهـا عشر دقائق لكـى تكون لـديه دائماً عشر دقـائق مدخـرة للطوارئ . . واذا سـار مع ابنه الشـاب فى الشارع تـوقف فجأة ليسأل ترى مـا هو عرض واجهـة هذا البيت او ما هـو عرض هـذا الشارع ثم يشرع فى قياسـه بعصاه التى يحملها دائماً والمضبوطة بدقة على المتر الهندسى الأصلى بمصلحة المساحة !

ويسأله ابنـه لماذا . . هل سنشترى هذا البيت فيجيبه متعجباً : مجرد معـرفة يا أخى . . كل شىء تعرفه فى الحياة يفيدك ذات يوم !

وهذا صحيح لكنه لم ينطبق كثيراً على تجاربه العملية اذ انه مع كل هذه المعارف والخبرات كان اذا اقدم على تنفيذ فكرة من افكاره غرق فيها وغرقت معه الأسرة فى بئر بلا قرار فلقد كان للأسرة بيت بالاسكندرية ورأت ذات يوم ان تجرى فيه بعض التحسينات ورفض الأب أن يستعين بمهنـدس لأنه يعـرف كل شىء . . فما ان بدأ العمل ذات يوم كما كتـب توفيق الحكيم «حتى أصبح البنـاء والهدم فى منزلنـا شيئا طبيعيـاً ومستمراً كـالأكل والشرب ولمدة اعـوام طـويلة فلقـد احضر ابى البنـائين والنجارين وصار يقول لهم شقوا هنا دهليـزا وازيلوا من هنا جداراً فما ان يفعلوا ما أمـر حتى يجد ان الباب بـدلاً من أن يفتح على الـردهـة قد فتح على المرحـاض وان الجدار الذى ازيل قد جعل المطبخ فى الصـالون ! فيعود يأمرهم من جديـد بسد ما فتحـوا . . وانتهى بنا الأمـر إلى أن صار البنـاؤون والنجارون والمبيضـون مقيمين اقـامة مستمـرة لأن العمل لا ينتهى ولا يمكن ان ينتهى فـاتخذوا لأنفسهم حجـرة قـرب بـاب الحديقة يقطنـون بها ويبيتـون ويسمـرون ويأتى لزيـارتهم فيهـا الأهل والأصدقاء!

اما الصديق الثالث فلقد تعرفت عليه فى كتاب «حياتى» للأستاذ أحمد أمين ، وكان يعتبره استاذه الثانى فى الحياة بعد أبيه ، ولم يكن استاذاً أزهرياً ولا مستشاراً خطيراً وإنما كان مدرساً للغة العربية بمدرسة رأس التين الثانوية حين عمل أحمد أمين لفترة من حياته مدرساً بالاسكندرية ، وكان من هؤلاء البشر الذين يثبتون صحة كلمة الكاتب الروسى الكبير انطون تشيكوف من ان «الانسان الشريف مهما كان شأنه لا يمكن ان يكون تافها أبدا» فلقد كان الشيخ عبد الحكيم بن محمد ممن تخرجوا فى دار العلوم ، وكان من هؤلاء الذين يفرضون على الآخرين احترامهم بشجاعة رأيهم وإباء انفسهم ، وكان كما قال احمد امين يعتمد فى دروسه على الحب لا على الارهاب ويحبه تلاميذه وزملاؤه لاباء نفسه وترفعه عن الصغائر ويترك لتلاميذه حرية الحديث والنقد ولم يكن مدرس لغة فقط وانما كان مدرس تفكير ونقد للمجتمع يشجع الآخرين على التفكير والخلاف معه فى الرأى .

وكان مع تصوفه لا يؤمن بالخرافات ويتذوق الموسيقى والشعر والأدب ويلتزم فى حياته بالصدق فلا ينطق إلا صدقا وان اذاه ذلك . . حتى أطلق عليه تلاميذه هذا الاسم الفريد الذى يترجم ضحكه المصرى واعجابه بمن يراه أهلا للاعجاب . . الشيخ الانجليزي !

. . وانتهت المساحة قبل ان أقدم لك المزيد من أصدقائى المجهولين فهل تنصحنى بالاستمرار فى البحث عنهم والاعجاب بمن يستحق الاعجاب منهم ام ترى معى ان زيارة الطبيب النفسى قد اصبحت واجبة !

نماذج من البشر - ٢ -

هل تريد ان تتعرف على المزيد من أصدقائي المجهولين الذين التقطهم من بطون الكتب . .

حسناً . . سأقدم لك عدداً آخر منهم وأرجو ان تلتمس لي بعض العذر في هذه الهواية الغريبة ، فحين يعز الأصدقاء الحقيقيون أو تباعد بيننا وبينهم الحياة والمسافات فلا بأس من التماس السلوى مع اصدقاء الخيال !

واحد آخر من هؤلاء تعرّفت عليه منذ سنوات بعيدة في الجزء الثالث من احب كتب الدكتور طه حسين اليّ وهو سيرته الذاتية «الأيام» وقد كتب عنه انه كان زميلا له في دراسة الليسانس بالسوربون في باريس وانه كان شابا مجتهدا طيب النفس يدرس ويكد لكنه يعاني من عقدة مع اللغة اللاتينية . وقد تقدم للامتحان اكثر من مرة فما ان يمسك بورقة اللاتينية التي ينبغي عليه ان يترجمها إلى الفرنسية ويقرأها حتى ينهض ويسلم ورقة الاجابة بيضاء من غير سوء وهو يردد لنفسه بيتا من الشعر اللاتيني عن اليأس والرجاء وينصرف غير محبط ولا منهار وهو يؤكد لنفسه انه لابد من نيل درجة الليسانس وان طال العناء ، ثم يعيش حياته العادية بلا حزن ولا اكتئاب ويواصل دراسته في انتظار الفرصة القادمة ، وفي احدى هذه المرات تقدم معه طه حسين للامتحان وكان قد تزوج قبلها بشهور واقام في شقة متواضعة بالدور السادس من بيت ليس به مصعد بالقرب من السوربون ، فكرر الصديق نفس القصة وغادر الامتحان يردد بيت الشعر اللاتيني . . اما طه حسين فقد واصل الامتحان . . وانتظر نتيجة الليسانس مشفقا من الفشل وذات مساء كان في شقته الصغيرة . . حين ظهرت نتيجة الامتحان ونجح هو ورسب صديقه ، فاذا

بهذا الصديق الوفى يقطع المسافة بين السوربون وبيت طه حسين جريا ويصعد الأدوار الستة قفزا ويدق الجرس فتفتح له الباب زوجة صديقه فيزف اليها البشرى فى سعادة طاغية وهو يلهث ويرفض الدخول ليستريح وانما يستدير من فوره ليهبط الدرج مسرعاً . . فتلاحقه بكلمات الشكر وهو يهبط ثم تتذكر انه زميل زوجها فتسأله عن نتيجته فيجيبها بنفس النبرات المبتهجة التى ابلغها بها خبر نجاح شريك حياتها : رسبت . . ولكن غدا يوم جديد ! وتعود الزوجة الشابة الى زوجها متعجبة لهذه الروح العالية وتتمنى لزميل زوجها التوفيق ، اما هو فانه يواصل كفاحه بلا ملل . . وبلا لوم للظروف . . وبلا احساس بالنقص . . وبلا غيرة ممن تقدموا عليه وكان هو من قبل يتقدمهم . . لأنه لا لوم الا لنفسه . ويتقدم للامتحان مرة بعد مرة حتى اذا تسلم ورقة اللاتينية ذات امتحان يعرف على الفور ان يومه المنتظر قد جاء فلا يتركها إلا وقد اتم ترجمتها على احسن ما يرام وينال درجته التى طال انتظاره لها واستحقها بكفاحه وصفاء نفسه وترفعها على الحقد والغيرة والكراهية ثم ينفتح الطريق بعد ذلك امامه ويحصل على الدكتوراه ويعود لبلاده ليعمل استاذا فى جامعاتها وقد اقترن اسمه باسم الجامعة التى امضى سنوات طويلة وهو يجاهد ظروفه فيها لينال شهاداتها . . فاذا باسمه الذى يتصدر مؤلفاته العلمية ومقالاته بعد ذلك وإلى أن يرحل عن الحياة هو الدكتور صبرى السوربونى!

ترى اما زال فى الحياة من يواجهونها بهذه النفس العالية التى لا تنصرف عن أهدافها إلى لوم الآخرين أو الحقد عليهم ؟

أما هذا الصديق فهو ليس شخصية حقيقية ، وانما شخصية نسجها قلم الروائى والشاعر الفرنسى العظيم «فيكتور هوجو» فى رواية لم تنل شهرة باقى اعماله هى رواية «الكادحون فى البحر» ففى هذه الرواية روى هوجو قصة طويلة عن شاب اسمه جيليات احب فتاة جميلة اسمها دورشيت حبا صامتاً بلا أمل ثم جاءته الفرصة حين اعلن عمها الثرى وولى امرها عن مكافأة لمن يغوص فى البحر

ويستخرج ماكينات سفينة له غرقت قرب الشاطئ، فيكون له الحق فى ان يتزوج دورشيت ، فيتقدم جيليات للمهمة الصعبة ويكابد أهوالا مريرة فى الغوص إلى قاع البحر وينقذ خلال محاولته الأولى قسيساً شابا من الغرق ، ثم يصل بعد كفاح مرير إلى السفينة الغارقة ويستخرج منها صندوقاً من المال ، كان صداق دورشيت قبل ان تغرق السفينة ، ويعود جيليات حاملاً المال سعيداً ليزف البشرى إلى دورشيت وعمها . . فيلمح من النافذة حبيبته تعانق القسيس الشاب الذى انقذه من الغرق ، فيعرف ان قلبها قد اختاره وانه لا مكان له فى قلبها . . فيسلم المال للعم ويرجع ويترك دورشيت لهواها ويتنازل عن حقه فى الزواج منها ، وتتزوج فتاته الجميلة من حبيبها ويرحلان معا بالسفينة إلى انجلترا . . ويحرص جيليات على أن يلقى عليها النظرة الأخيرة فيقف على صخرة فى الماء يرقب سفينة حبيبته وهى تبتعد رويداً رويداً . . ويرتفع المد فيصل الماء إلى ركبتيه وهو مستغرق فى النظر للسفينة المبتعدة ، ثم إلى وسطه ، ثم كتفيه ثم يغطيه الماء تماماً ويغرق جيليات بلا مقاومة . . بلا مقاومة راضياً بأنه ان لم يكن قد نال يد حبيبته . . فقد كسب ما يعوضه عنها . . وهو سعادتها ! فرحمة الله عليك يا صديقى جيليات فما من مرة قرأت هذا الفصل الأخير من قصتك إلا وتندت عيناى بالدمع ليس اسفا عليك فقط . . وانما أيضاً على قلة امثالك فى الحياة ممن يعرفون ان فى التضحية لمن تحب بعض السعادة .

وصديقى هذا من شخصيات التاريخ الحقيقية لكن كتبه لا تذكره كثيراً لأنه لم يحكم سوى أربعين يوما . انه معاوية بن يزيد ثالث خلفاء بنى امية ، وابن الخليفة الضعيف اللاهى يزيد بن معاوية بن ابى سفيان، فقد مات «يزيد الفجور» . كما روى عنه بعض المؤرخين ، واستخلف ابنه معاوية بعد ان أصبحت الخلافة مُلكا يتناقله الأبناء ، وكان معاوية شابا صالحاً تقياً . . جاءته الخلافة وهو مريض فاستمر مريضاً ولم يخرج إلى الباب ولم يصلِّ بالناس ولم يضع ودة الملك ، ثم جاءته المنية واحتضر وطلبوا منه ان يستخلف احدا من بنى امية من بعده فرفض ان ينكب

المسلمين باحدهم وهـو لا يعرف ماذا سيكون من امـره مع الناس . . وألحوا عليه فقال كلمته التى ما ان اقـراها كل مرة حتى تذوب نفسى حبًا لـه وأسفاً عليه : «ما أصبت من حلاوتها . . فلماذا اتحمل مرارتها؟» يقصد انه لم يذق حلاوة الملك فلماذا يتحمل امام الله وزر اختيـار من قد يظلم الناس بعده ، ثم يموت معاويـة بعدها ـ لهفى عليه ـ وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ولـو امتد به العمر لكان خامس الخلفاء الراشدين .

وعفـوا لهذا الجو الحزين رغما عنى . . فـلأخـرجـك منـه اذن بتقـديمى إليك صديقى الجديد هـذا . . انه أيضا من اصدقاء الخيال لكنى أرى لـه فى الحياة اشباها كثيرين . . انـه ذلك الفتى الصعلـوك ضئيل الجسم الذى نسجـه قلم اديبنـا الكبير نجيب محفـوظ فى كتابـه «حكايـات حارتنـا» فلقد روى عنـه أنه كـان فتىً ضائعـاً يمضى أوقاته بلا عمل مع شُـلّة من امثاله وقد فتن باحدى جميلات الحارة فاتفق مع زملائه على تمثيلية ينال بها اعجابها ، فتقدم بعضهم لمضايقتها ، ثم جاء البطل المنقذ عباس الجحـش . . فصرعهم بضربة واحـدة . . وفروا امـامه كالجرذان فـاحست بالاكبار لـه . . ونشرت قصة «بطولته» عنـد اسرتها وفى الحارة ، وفوجئ الجحش بصبى المقهى يستقبلـه مرحبـا «بالمعلم» . . فتـوة الحارة فدارت رأسـه . وصادف ذلك خلـو الحارة من فتـوة بعـد مصرع اخـرهـم فسأل نفسـه ولم لا ؟ فـاصطحب الصعـاليك رفـاقـه وتقـدم إلى المقهى وجلس فى صـدارتـه فـاذا بـالجميع يحيـونـه ويحترمونـه . . ويؤدون له الأتاوات وطـابت الدنيا لعبـاس الجحش . . ونعم بعز الفتونه وجـاهها . . ! وتقدم لخطبة فتاتـه فاجيب بالقبول على الفور وعقـد قرانه عليها وتحدد موعد الزفاف والزفة التى لابـد منها لتتويج بطولته ، وسار عباس فى مقدمة الزفة ومن حوله الرجال والشموع . . وعند احدى الحارات افاق فجأة من الحلم السعيد على الواقع المر . . لقد تصدى له فتوة حارة العطوف . . وشهر نبوته يتحداه . . فتوة حقيقى . . وليس وليد المصادفـة مثله . . واصبحت فتونه عباس الجحش وحيـاتـه فى الميـزان . . فطـارت السكـرة وجـاءت الفكـرة . . وتـرقب

أصدقاؤه ماذا سيفعل صديقهم، فاذا به يفاجئهم ويتقدم بجسارة غريبة ويلوح بنبوته . . فتتوقف القلوب تترقب المجزرة القريبة . . وواصل عباس جرأته الشيطانية . . وتقدم صوب فتوة العطوف . . ثم توقف لحظة وفجأة اطلق ساقيه للريح منحرفا فى حارة جانبية . . ومودعا حلم الفتونة الكاذب إلى الأبد وناجيا بحياته . . واختفى من الحارة فلم يعثر له بعدها على اثر . . واصبحت حكايته الغريبة . . نكتة تروى ، وعبرة لكل موهوم .

ترى كم «جحشاً» رأيته فى حياتك توهم فى بعض الأوقات انه بطل ضرغام لأن بعض الظروف قد اوهمته بذلك ، فاذا ما تعرض لاختبار حقيقى تهاوى واندحر وتحول إلى فأر صغير ؟ وترى كم من هؤلاء يذكرك بكلمة فولتير الخالدة : «كثيراً ما رأيت عصفوراً يطير وراء نسر وفى اعتقاده ان النسر إنما يفر منه !» فتتعجب كثيراً مما قد يصنعه الحمق والغرور ببعض العصافير أو بعض «الأجاحيش» !

نماذج من البشر - ٣ -

أريد أن أستأنف من جديد سلسلة مقالاتى التى أعرفك فيها ببعض الشخصيات الأدبية والتاريخية التى اكتشفتها من خلال قراءاتى المختلفة وأحببتها واعتبرتها من أصدقاء الخيال الذين أتذكرهم كثيراً وأضحك لمفارقاتهم احياناً وآسف لآلامهم فى أحيان أخرى ، ومنذ فترة طويلة والرغبة تلح على فى أن أقدم لك واحدا من أحب هؤلاء الأصدقاء إلى قلبى هو الروائي الفرنسى العظيم الكسندر ديماس الأب ، مؤلف رواية الفرسان الثلاثة . . ورواية كونت دى مونت كريستو التى عرفتها السينما العربية باسم «أمير الانتقام» وغيرها من الروايات الشهيرة ، وهو شخصية فريدة فى انتاجه . . وفى حياته الشخصية العجيبة فحين ولد صاح أبوه معجبا : يا إلهى لقد انجبت طفلا كأنه رجل ! فقد كان وزنه تسعة أرطال وطوله ١٨ بوصة «أى حوالى نصف متر» ويتمتع بقوة جسدية كبيرة . وفيما بعد وصفه أحد النقاد فقال عنه انه كان قوة من قوى الطبيعة لا أحد يماثله فى جريان قلمه بسهولة كأنما لا يكتب !

وليست هذه فقط أهم ملامحه . . فلقد كان حصانا جامحاً فى كل شىء يعمل كثيراً . . ويضحك أكثر ويستمتع بالحياة ويمتع أصدقاءه بأحاديثه ويشارك فى الحياة العامة والدفاع عن الحريات ويشجع ابنه الكاتب الشاب ديماس الابن وينافسه !

فى بداية حياته جاهد طويلاً ليقدم اولى مسرحياته للمسرح الفرنسى ثم كتب مسرحية عن ملكة السويد كريستيانا وقبلها المسرح أخيراً وبدأت بروفاتها وبدأ ديماس يستعد لجنى ثمرة كفاحه فاذا بمؤلف مسرحى عجوز ظل طوال حياته

يحاول بلا طائل أن يقدم احدى مسرحياته للمسرح قد كتب مسرحية عن نفس الملكة وقدمها لنفس المسرح . فماذا يفعل ديماس ؟ لقد سحب مسرحيته بكرم شديد قائلاً : فلنعط الزميل العجوز فرصته لأن يقول كلمته الأخيرة على المسرح قبل أن يودع الحياة ! ولم يحزن ديماس ولم يقلل ذلك من فرصته ككاتب مسرحى فقد قدم له المسرح بعدها عشرات المسرحيات الناجحة . . فمن يفعل مثلما فعل هذا الفنان العجيب الآن؟ .

ثم هو دائم الصخب والبهجة والاستمتاع بالحياة حتى فى أشد ظروفه معاناة وضائقة اقتصادية يدخل الصالونات الأدبية فى باريس فيثير عاصفة من الضحك بتعليقاته الذكية ـ وايماءاته اللاذعة ـ ولا يبدأ أحدا أبداً باساءة لكنه يستطيع دائماً ان يرد على من يحاول الاساءة إليه بما يسكته !

يقول له الأديب الفرنسى أو نوريه بلزاك «وكان يعتبر الكتابة للمسرح أقل قيمة أدبية من كتابة الروايات الأدبية» : حين يجف نبع موهبتى سأكتب التمثيليات للمسرح ، فيرد عليه ديماس «بأدب» : اذن فابدأ على الفور أولى مسرحياتك !

ويتفاخر أمامه شاب من الأشراف بأصله ثم يسأله ان يحدثه عن أصله فيقول له بكل جدية : ولد أبى فى الهند الغربية . . وكان جدى زنجياً . . وكان جدى الأعلى قرداً . . ويبدو ان اسرتى قد بدأت من حيث انتهت اسرتك !

وتقول له احدى ممثلات مسرحياته بعد اسدال الستار وسط تصفيق الجمهور لقد صنعت نجاحى . . فكيف أرد إليك جميلك ؟ فيقول لها : هكذا ثم يتزوجها !

ويفتر نجاحه المسرحى قليلاً فلا ييأس ولا يستسلم للفشل والاحباط وانما يطرق بابا جديدا هو تأليف الروايات التاريخية فيصبح بعد قليل من اشهر كتابها ويكتشف فى التاريخ كنزا يحول وقائعه الجافة إلى روايات شديدة المتعة والاثارة . . ويغير ويبدل فى وقائع التاريخ لتنسجم مع البناء القصصى وينتقده لذلك احد النقاد فيقول له ببساطة : لا بأس بان تعتدى على التاريخ بشرط ان تنجب منه طفلاً! يقصد بشرط ان يثمر ذلك عملاً أدبياً له قيمة !

وهو حين يكون مشغولاً بكتـابة رواية جديدة يكتب واقفاً من السـاعة السابعة صباحـاً إلى السابعة مساء بـلا توقف ويرد على تحيـة أصدقائه ملوحـاً بيده اليسرى ويده اليمنـى مستمرة فى الكتـابة ويعايـش شخصيات روايتـه فى خيالـه ، ويزوره أديب انجليزى وهـو منهمك فى الكتابـة فيسمعه من خـارج غرفـة مكتبه يضحك ضحكة صاخبة فيسأل خادمه عمن معه في المكتب فيجيبه . . لا أحد . . إنه يكتب ويضحك على النكات التي يطلقها أبطال روايته !

ورغم انتاجه الغـزير فبيته لا يخلو أبداً من ضيـوف على الغداء . . أو العشاء ، ومـائدة طعامـه يجلس إليها دائما ١٢ أو ١٥ ضيفـاً ، وهو يتقن الطهى ويتفنن فيـه ويدعو اصـدقاءه فى أيام الاجازات للاقـامة عنده ويرسل إليهم خـادمه فى الصباح برسالـة منه : سيدى يسألكم ماذا تـريدون من أنواع الطعام للغـداء اليوم حتى لا تظنوا انه لا يجيد سوى طهى الأنواع التى يقدمها لكم !

وهو يربح كثيرا وينفق أكثر وتحاصره الديون ويتردد عليه محضر المحكمة مرارا باعلانـات الحجز سدادا للديون المتأخرة حتى كـره المحضرين من أعماقه! ثم يجيئه صديق ذات يـوم يسأله المعاونـة في نفقات دفن رجل مـات بلا عائل فيقـدم له ١٥ فرنكا ثـم يسأله عنه ويعرف انه كـان محضرا باحدى المحاكم . . فيخـرج من جيبه ١٥ فرنكا اخرى يعطيها له قائلا : إذن فادفن معه محضراً آخر ! لكن ديماس عاشق الحياة يواجه منافسة شديدة لم يحسب لها حسابا من قبل لقد اصبح ابنه الشاب كاتبا مسرحيا مـرموقـاً ، وكتب وهـو فى الثـامنـة والعشرين من عمره مسرحيـة غـادة الكاميليا فـاذا بها تطغى على شهرة كل أعمال أبيه وتؤثـر على بريقها ويصبح ديماس الابن حديث المجـالس الباريسية . . وتتوزع مشـاعر الأب الفنان بين الفخر بـابنه والغيرة من نجاحه الأدبـى فيحل هذا التناقض بطريقتـه العجيبة . . فيحتفظ لابنه فى قلبه بكـل الحب والفخر بنجاحـه الأدبى . . ويطلق لسـانه اللاذع متشكيـا من عجائب الزمن التـى جعلت من هذا الشاب الصغير أشهر من أبيـه ! فيقول : لقد انجبت ولـدا فتحول إلى ثعبـان ! ويرد الابن : لقـد كان لى أب فتحـول إلى طفل!

وصالونـات باريس تضحك لهذه المعركة الأدبية العجيبـة وتتابع بشغف محاولة كل منهما ان يتفوق أدبيا على الآخر ولا تعجب لما يكنه كل منهما لصاحبه من حب يصل إلى ما يشبـه العبادة ولا لفخر كل منهما «سراً» بصـاحبه أمـا فى الصالونـات الأدبية فكل منهما يتحدث عن نفسه فقط !

ويشارك ديماس الأب فى ثـورة غاريبالدى بـايطاليا وهو فى الثـالثة والستين من عمره ويعـود فيستقبله ابنه فى المحطـة ويطلب منه أن يعـود معه إلى البيت ليستريح لكن الأب الجامح يصطحبـه قسراً لزيـارة الشاعـر الفرنسى جـوتييه فى منـزله . . ويوقظه من نومه ولا يغادره إلا فى الرابعة صباحاً ، ويدخل الابن فراشه أما الأب الفنان فيجلـس إلى مكتبه ليكتب ثـلاث مقالات لثـلاث مجلات مختلفة . . وأخيرا يلقى الحصـان الجامح بقلمه ليستريح بعـد طول عنـاء . . فيتوجـه وهو فى الثـامنة والستين من عمره إلى بيت ابنه ويقول لـه : «جئت إليك لأموت»! ثم يمضى أياما فى الفراش رافضاً الكـلام . . فيحزن أصدقاؤه ويقولـون ان عقله قد اضمحل . . لكن الابن المفتون بأبيه يرد باباء : ان عقلا كعقل أبى لا يمكن ان يضمحل . . فإن كان يرفض الكلام بلغتنا الآن . . فانما ذلك لأنه قد بدأ يتعرف على لغة الخلود !

ألست محقاً فى حبى لشخصية ديماس الأب ، وفى اعجابى بهذه العلاقة الفريدة بينه وبين ابنه ؟!

فـــــوق العارضــــــة !

لى صـديق مقيم فى لنـــدن ومتخصص فى إفســاد زيـاراتى لها ولســائر عمـوم بريطانيا . ولـو واتته الظروف والامكانيات وصاحبنى فى رحـلاتى الأخرى لامتدّ تخصصه إلى باقى القارة الأوربية !

فنحن صـديقان منـذ زمن بعيد ، ولا أستطيع أن أزور لنـدن بغير أن أراه وأن يصاحبنى فى فقـرات برنـامجى للرحلـة الذى أعـدّه قبل السفر وأعـاهد نفسى على الالتـزام به لكى احقـق اقصى استفادة ممكنـة منهـا . وهو لا يعترض على بـرامجى الثقـافية والسيـاحيـة لكنه لسبب لا اعلمـه من نـوع نـادر من البشر لا يعرف أبـداً الوسيلة أو الطريق الذى يؤدى إلى الهدف المنشـود . فإذا كان فى القاهرة وغادر بيته مصمما مثلاً على إنهاء مهمة معينـة فإنه قد يعود إلى البيت فى المسـاء وقد نسى المهمة الأساسية وحقق غرضاً آخر هامشياً لا يفيده وربما أضر به وأخرّ الوصول إلى هدفه الأصلى ، وإذا كان فى مصر وأراد الـذهاب إلى الاسكندريـة لقضاء مصلحة هـامة واستعد لذلك وجهز سيارته وخـرج إلى الطريق وكله إرادة وتصميم فقد يجد نفسه فى بورســـعيد وليس فى الاســـكندرية مع أنـه خبـــير بالطـــرق وفى ســـيارته خرائط لكل شوارع الكرة الأرضية ، لكـن الأمور تجرى معه على هذا النحو وبغير تفسير أو تبريـر فقـد يغير رأيـه فجأة فى منتصف الطـريـق وقـد يلتقى بمن يغـريـه بالذهاب إلـى جهـــة أخـرى فيمـضى معـه بلا ترتيـب سـابق ، والنتيـجة دائـــماً واحدة هى ان الهـــدف الأسـاسى الـــذى خرج إليـه لم يتحقق وطاشت كـرته دائماً فوق العارضة !

خذ مثـلاً ما حـدث لى معه حين أردت السفـر من لنـدن إلى مدينـة ستراتفورد

لأرى بيت الكاتب الانجليزي العظيم شكسبير ومتحفه فيها ، فلقد جاء ليصحبنى إليها بسيارته متأخراً كالعادة عن موعده بساعتين وطمأننى إلى أننا سنصل رغم ذلك فى وقت مناسب ، فانحشرت إلى جواره فى السيارة الصغيرة ووصلنا إلى المدينة بعد ساعتين والساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر ، فطلبت إليه ان نتوجه إلى البيت مباشرة لكيلا يسرقنا الوقت ويضيع عناء الرحلة بلا فائدة . لكنه طمأننى إلى أن البيت يظل مفتوحاً حتى السابعة مساء وقد عرف ذلك من زيارة سابقة فلا بأس إذن بأن نتجه إلى مطعم لتناول طعام الغداء أولاً ونستريح من عناء السفر ، واستجبت له وأنا غير مقتنع ، لكننى لم أعارض مادمت سأجد ٣ ساعات على الأقل لرؤية البيت وتأمل مخطوطات الكاتب العظيم وريشته التى كتب بها روائعه ومتعلقاته الشخصية . وتوجهنا للمطعم القريب وراح صديقى يقرأ قائمة الطعام باستغراق واحترام شديدين كأنما يقرأ فى الكتاب المقدس ، ثم راح كعادته يطيل الحديث مع الجارسون حول أنواع الطعام والخلفية التاريخية لكل نوع ، وجاء الطعام أخيراً فبدأ يتناوله ببطء شديد وتلذذ ويفصل ما بين كل لقمة وأخرى بحكاية طويلة عن أى شيء ، وانتهيت من طعامى وشربت القهوة وهو مازال يتغزّل فى طبقه الأول ويتحدث ومن حين إلى آخر انظر إلى ساعتى وأهمس له قائلاً : بيت شكسبير !

فيطمئننى ويواصل الكلام حتى انتهى اخيراً من طعامه والساعة تقترب من الخامسة ، وأمام شباك التذاكر فى بيت شكسبير، نظرت إلينا الموظفة بدهشة وقالت لنا أن البيت سيغلق أبوابه بعد عشر دقائق لأن موعد إغلاقه هو الخامسة فهل تريدان مع ذلك الدخول ! . والتفت إلى صديقى الخبير بإضاعة الأهداف فوجدته ينظر إلى من وراء زجاج نظارته مرتبكا ، فزهدت حتى فى العتاب ، وطلبت التذاكر لأنى سافرت ساعتين من لندن من أجل ذلك ولن يسمح برنامجى بالعودة مرة أخرى وهرولت إلى داخل البيت ورأيت ما استطعت رؤيته خطفاً وأشفق علينا الحراس فتركونا داخله خمس دقائق إضافية ، وتلهيت عن ضيقى بعد

مغادرة البيت بمشاهدة المسرح الذى لا يعرض إلا روائع شكسبير وتمثاله الكبير فى مدخل المدينة ، ولم يسعفنى الوقت لمشاهدة كنيسة الثالوث المقدس التى دُفن بها بعد وفاته فى عام ١٦١٦ وعُدت من ستراتفورد ولم يزاولنى ضيقى بعد ليس فقط لأن صديقى العزيز قد أضاع جهدى فى السفر بلا طائل وإنما لأنها المرة المائة التى يفعلها فيها معى خلال زياراتى لانجلترا . . ولا هو يتغير ولا أنا أتعلم من تجاربى معه وأحترس !

فلقد تكررت القصة معى بكل تفاصيلها حين صاحبنى لزيارة المتحف البريطانى فى لندن ، إذ دخلت جناح الآثار المصرية . . وتوقفت أمام حجر رشيد المصنوع من البازلت الأسود والذى أدَّى إلى حل لغز الكتابة الهيروغليفية وبدأت أراجع معلوماتى عنه فى كتاب صغير . . وأسترجع كيف اكتشفه ضابط فرنسى من ضباط الحملة الفرنسية على مصر إسمه بورشار فى جدار قلعة قديمة برشيد أراد الفرنسيون هدمها ، وكيف استولى عليه الانجليز الذين هزموا الفرنسيين فى موقعة أبى قير وأرسلوه إلى لندن ووزعوا صوراً من الكتابات الثلاث الموجودة عليه على الجامعات وعلماء الآثار وكانت بالهيروغليفية واليونانية والقبطية ، فشاهد صورها بالمجلات صبى فرنسى عبقرى عمره ١١ عاما اسمه فرانسوا شامبليون وعاهد نفسه على أن يحلَّ طلاسم الكتابة الهيروغليفية ودرس فى أكاديمية العلوم بجرينوبل وعمره ١٧ عاما وتعلَّم اليونانية واللاتينية والقبطية والعربية ورسم خريطة تاريخية لآثار مصر التى لم يزرها ، وألَّف فى تلك السن قاموساً قبطياً ثم أصبح عضواً بأكاديمية العلوم الكبرى فى فرنسا ، وراح يقارن بين الرسوم الهيروغليفية والنصَّيْن اليونانى والقبطى المجاورين ولاحظ تكرار بعض الصور مع تكرار بعض الحروف ، فتوصَّل من ذلك إلى أن هذه الرموز هى لغة وليست مجرد أشكال جميلة وتمكن وعمره ٣٢ سنة من حل رموز الهيروغليفية وأَنطق حجر رشيد وتابع جهده من بعده عدد كبير من العلماء حتى تكشفت تماماً كل أسرار اللغة الفرعونية فلم أكد أستغرق قليلاً فى تأمل الحجر ومراجعة المعلومات حتى رأيته

يجذبنى من ذراعى لتناول وجبة سريعة فى الخارج مع تأكيدات جازمة بأننا سنعود سريعاً ، وان المتحف يبقى مفتوحاً حتى . . . إلخ . فخرجنا وعدنا فوجدنا الحراس يمنعون الدخول لأن موعد الاغلاق كالعادة كان أقل مما يعرف ويؤكد صديقى بساعة .

وتكررت نفس النظرة اللائمة منى إليه ونفس النظرة الحائرة المرتبكة من وراء زجاج النظارة منه ، وهكذا فى معظم الزيارات التى صاحبنى فيها رغم حسن نيته وعزمه الصادق على أن يساعدنى فى تنفيذ برنامجى الثقافى ، لكن حسن النية وحده لا يكفى أحياناً كما تعلم ، وقد تفوّق على نفسه فى سوء التقدير والتنظيم ذات مرة حين أردت السفر من لندن إلى أدنبرة عاصمة اسكتلندة لأراها لأول مرة ، فأقنعنى بالسفر إليها معه فى السيارة وأكّد لى أن المسافة التى تزيد على ألف ومائتى كيلو متر لا تستغرق سوى ٧ ساعات فى سفر مريح ! فإذا بدأنا الرحلة فى الصباح المبكر فإننا نصل إليها بعد الظهر ونستمتع بمشاهدة المدينة ومعالمها لعدة ساعات قبل النوم ثم ننهض مبكرين فنزور قصر ملكة اسكتلندة مارى ستيوارت التى عاشت ٤٥ عاما فقط تزوجت خلالها مرتين وحفلت حياتها القصيرة بالغموض والمؤامرات حتى إنتهت باعدامها بقطع الرقبة فى لندن سنة ١٥٨٧ ، فنمضى فى زيارته عدة ساعات ونبدأ رحلة العودة فى الظهر ونصل إلى لندن فى المساء فأبيت ليلتى راضياً ثم يوصلنى فى الصباح إلى المطار . ووجدت البرنامج غاية فى الترتيب والتنظيم فتحمست لتنفيذه وأعددت حقائبى وانتظرته فى الصباح المبكر كما وعد فجاءنى فى الظهر وبدلاً من أن نسابق الزمن لبدء السفر . . توقفنا فى بداية الرحلة عدة مرات ليتناول إفطاره المتأخر . . ثم ليشرب القهوة ثم . . إلى آخره . حتى حلّ الأصيل ونحن مازلنا على بداية الطريق السريع إلى أدنبرة . . ولست فى حاجة لأن أقول لك أننا بدلاً من أن نصل إليها فى الأصيل كما وعدنى قد وصلنا إليها بعد الواحدة صباحاً . وأصبح همنا الوحيد هو البحث عن محل مفتوح نتناول فيه أى وجبة طعام . ولا كيف نمنا كالقتلى من إجهاد الرحلة الشاقة التى لم أتخيل طولها

وإرهاقها حتى ظهـر اليوم التالى ، فما أن صحونا حتى جررتـه جراً بغير إفطار ولا قهوة إلى قصر الملكة مارى وشاهدته خطفاً كالعادة ولم أجد الفرصة لاستمتع حتى بوصـف المرشد له وإصراره على أن يـرينا وهـو يغمز بعينيـه السلم الخلفى السرى الذى كان يصعد منه صديق الملكة إيرل أوف بثول ليقابلها خلسة ، ثم جررته جراً للتجول فى شـوارع أدنبرة والبحث عن أى أسكتلندى يـرتدى الجونلـة السكوتش الشهيرة لأقنع نفسى بأنى قـد زرت إسكتلنـدة ثم إلى السيـارة اللعينة لنبـدأ رحلـة الشقاء مرة أخرى رافضاً كل توسلاته لأن نتوقف على الطريق ليمارس عشقه الأزلى لهوايـة الطعام والكـلام على المائدة ! وقد حل بى تعب الـدنيا بأسرهـا فلم أستطع حتى أن أغفو لدقيقة واحدة وهيهات أن أفعل لـو استطعت وحديث الذكريات لا ينضب خلال الطريق الطويل وإلى أن وجـدت نفسى على مشارف لندن فى الصباح فتوجهنا بالسيارة إلى المطار مباشرة بغير نوم وظللت بعدها عدة أيام اعانى من آلام الظهـر والسـاقين واضطـراب النـوم ، فإن كنت قـد سعـدت بشىء رغم ذلك «فبمقلب» لم أقصـده وإنما دبرتـه الأقدار نيـابة عنى ربما انتقـاماً من سـوء التقديـر والتدبير ، فقد توقفت فى بداية رحلة العودة أمام سوبر ماركت لاشترى منه بعض الطعام وعلب العصير فوجدت فى الثلاجة بيتزا جميلـة مزينة وملونة فاشتريت منها ٤ لنأكلها خـلال الرحلـة وعدت للسيارة وكـان صديقى يتضـور جوعـاً فأعطيته واحـدة منهـا واكتفيت أنا بشرب العصير ، وتعجل صـاحبى الاحسـاس بـالشبع فطـوى البيتزا نصفين ثـم قضم منها قضمـة هـائلة تسـاوى ثلثهـا على الأقل وراح يمضغها بتأن وإتقان وابتلعها بسلام . وقضم أخـرى وبدأ يمضغها ثم توقف فجأة وقد ارتسمت على وجهه كل علامـات القرف وقال لى : إنها عجين لم يدخل الفرن بعد ! فـاندهشت لـذلك وأخرجت واحـدة منها وتفحصتها فـوجدتها فعـلاً معدة للبيع لكى يخبـزهـا من يشتريها فى الفرن . . وتنبهت فى هـذه اللحظـة فقط إلى سر رخص ثمنها بالنسبة لأسعار البيتزا المعروفة ، وانتقلت النظرة الحائرة المرتبكة هذه المرة إلى عينى أنا ، لكنها لم تستقر طويلاً فقد وجدت نفسى اشم البيتزا وأقول له :

فعلاً مازالت عجينا . . لكن لا تنكر أن خميرته جيدة ! وأفرجت عن الضحك المكتوم الذى كاد يفتك بى

ومع كل ذلك فما أكثر ما استمتعت بجولاتى وزياراتى مع صديقى هذا . . وما أبأسنى اذا زرت لندن ذات مرة فلم أجده فيها كما حدث خلال زيارتى الأخيرة لها

فلقد افتقدته وافتقدت أنغام الصداقة الجميلة المبرأة من الغرض وتذكرته «وتذكرت حسن تدبيره» للأمور فى كل مكان زرته وحيداً وأسفت كثيراً لغيابه .

وتذكرت من جديد أنه ما أسهل تعويض البرامج إذا فسدت أو فشلت أما صداقة العمر فما أصعب تعويضها إذا أفسدها الشقاق أو حكم عليها الزمن بالفناء .

واحد من البشر !

■ ككل الأطفال كانت له ملاعبه وأمانيه وأحلامه ، وبعكسهم كانت ملاعبه ضيقة وأحلامه متواضعه . فلقد عانى وهو طفل من مرض بالعظام تطلب وضع ساقه فى الجبس . ولم يكن فى مدينته الصغيرة فى ذلك الوقت سوى طبيب واحد للعظام لعله لم يكن متخصصًا فيها لكنه رآها مجالا أوسع للرزق ، فتوجه اليه أبوه ومعه طفله فى الموعد المحدد . وبدأ الطبيب يؤدى مهمته فلاحظ الأب أن الطبيب طلب من الممرض ومساعده ان يحملا الطفل بين أيديهما ليلف الجبس حول ساقه وهو معلق فى الهواء رغم ما يسببه ذلك الوضع من آلام فسأل الأب متعجبا عن سر هذا الوضع الغريب فأجابه بأغرب ما يستطيع طبيب أن ينطق به وأنه قد فعل ذلك حتى لا يتسخ مفرش مائدة الفحص بالجبس! وثار الأب بكل ما فى قلبه من عاطفة تجاه ابنه المريض وعرض على الطبيب أن يضيف ثمن المفرش الى أتعابه عن العملية مقابل ان يريح ابنه من هذا العناء . فخجل الطبيب من نفسه وامر بوضعه على المائدة وانتهت المهمة بعد عذاب وعاد الطفل محمولا الى بيته ودموعه تسحُ بلا إنقطاع .

وظلت ساقه حبيسة الجبس شهوراً طويلة كانت ملاعبه خلالها مجرد اريكه فى صالة بيت أبيه يجلس عليها طوال النهار ويتلهى بألعاب ساذجة ويضحك من قلب فطر على حب الحياة والناس مهما قست أو قسوا عليه .

وبعد أسابيع بدأ يتجول داخل البيت رافعا ساقه المثقلة بالجبس بجهد كبير ثم بدأ يضيق بسجنه فتحمله «الشغالة» ليرى الدنيا من فوق كتفها وساقه الثقيلة تتدلى بجانبه . وطال علاجه حتى استردت ساقه عافيتها واستطاع أن يحركها بحرية وبلا

قيود ، فتخلص من الجبس لكنه لم يتخلص أبدًا من آثار سجنه لفترة طويلة داخله ، فقد تواضعت بعده احلامه واستشعر عدم جدارته بأن ينال من الدنيا ما يطمح اليه الآخرون .

وحين انضم الى رفاق الطريق فى لعب الكرة رضى لنفسه بمركز حارس المرمى وقــد كــان مركــزا يتهــرب منه الأطفــال فى سنه ولا يقبله أحدهم إلا راغما .

وحين تقدمت بـه السن قليلا كان ترتيبـه دائما متأخرا فى الدارسـة رغم ذكائه ، وضاعف من ذلك نكبته فى وفاة ابيه وهو لم يتخط بعـد العاشرة من عمره وحرمانه من عطفه ورعايته وتوجيهه . وكافح بـلا نجاح التعثر فى الدراسة لعدة سنوات ثم استسلم لأ قـداره وحوّل مجرى حيـاتـه وخرج الى العمـل الحر مخالفا بـذلك سيرة اخوته الذين شقوا طريقهم فى الدراسة بنجاح . وكعادته فى الرضا بالحد الأدنى من الاشيـاء رضى بعمله غير البرّاق . ووجـد نفسه فيـه وتكشفت ملامح شخصيتـه الحقيقية . كانت ميزته الكبرى انـه من ذلك النوع النادر من البشر الذى لا يستطيع احد ان يكرهه اذا اقترب منه او تعامل معه ، فهو على استعداد دائما لأن يتنازل عن رغباته ارضـاء للآخرين . ويحركه دافع قوى من أعماقـه لأن يطلب قبول الآخرين له ولـو ضحى فى سبيل ذلك بالتنازل عـن حقه أو راحته . ثم هـو إلى جانب ذلك نفس صافيـة مبرأة من الحقد والحسد والغيرة والغيرة والاحساس بـالنقص . يرى اخوته الأصغر منه يتخطونه فى الدراسة فيرى من واجبه أن يعينهم على امرهم بما فى يـده ولو بـالذهـاب لإحضار شهـاداتهم الدراسيـة من المدرسة وبتقـديم أوراقهم للكلية ، ويسعد بنجاحهم وتفوقهم كما لو كان النجاح والتوفيق قد تحققا له .

ويرى زمـلاءه الذين واصلوا طريقهـم الدراسى وغادروا مدينتـه الى الكليات الجامعيـة فى العاصمـة يعودون لقضـاء الصيف فيستقبلهم بـالأشواق والأحضـان ويسعد بتفوقهم وقد يعين احدهم بشىء يسير من المال اذا شكا ضيق ذات اليد .

وهو إلى جانب هذا وذاك تتملكه عاطفة أخوية وعائلية فياضة يضاعف منها أنه سريع البكاء ويعبر عن فـرحه واشجـانه دائما بـالدموع ، فـاذا سعد بشىء تـرقرق

الدمع في عينيه فلا تعرف أتفرح لفرحه ، أم تحزن لدموعه ، واذا حزن لشيء سال دمعه أنهاراً . . وإذا لمته لأى عارض يستحق العتاب أو اللوم لم يجبك بغير دموعه فتندم لأنك آذيت شعوره وان لم تقصد . وهو يحب الجميع بلا استثناء حتى إذا جافوه وقد تزوج أحد إخوته وكانت علاقته به فى ذلك الوقت غير مستقرة وتشوبها ظلال من الجفاء والشك من جانب الأكبر ففوجئ به أخوه ليلة زفافه يرقص بين يديه بإنفعال عصبى شديد ودموعه تنهمر من عينيه بلا توقف فلم يملك أكثر الحاضرين دموعهم وأولهم شقيقه .

وشكا أحد اخوته من مرض عارض ذات ليلة فأمضى ليله جالسا على مقعد أمام غرفة نومه حتى الصباح خشيه ان يحتاج لشيء ، وكذلك كان يفعل مع كل أفراد اسرته .

وتزوج بعد سنوات شقيقه الآخر وكان قد غادر مدينته الصغيرة الى العاصمة منذ سنوات طويلة وعاد ليحتفل بزفافه فى بيت الاسرة ، فأصر على أن يركب فوق ظهر السيارة التى تقله مع عروسه والتى تطوف شوارع المدينة فى طابور من السيارات ، وهو لا يكف طوال الطريق عن الغناء والترديد ويقابله المارة وأصحاب المحال وكلهم من معارفه واصدقائه بالتحية والتهنئة فيرد تهنئتهم بقلب سعيد ويبالغ بعضهم فى تحيته فيقذفون السيارة التى يحتل ظهرها بالشيكولاته والبنبون والتفاح محبة له . ثم يجلس على المسرح فى النادى الذى اقيم فيه الحفل بين يدى شقيقه ليكون فى خدمته عند أول اشارة .

وتزوجت شقيقته الصغرى فاعتبر حفلة زفافها واجبه الأول وانشغل باعداد قاعة النادى الذى ستقام فيه ، واعداد المسرح والزينات والبوفيه والفرقة الموسيقية حتى ليواصل الليل بالنهار بلا نوم ضمانا لحسن التنظيم والترتيب ، ثم يبدأ الحفل فيمضى كل وقته وقفا على قدميه على المسرح يرقب اخته بفرح طاغ أو يرقص أمامها وتغلبه عاطفته تجاهها وتجاه كل اخوته وكل البشر فيبكى ووجهه ينطق بالابتهاج والسعادة .

ثم تدور الأيام دورتها . . ويخفق قلبه بالحب ، ويتوجه بمشاعره الى فتاة من اسرة بسيطة لا تتناسب ظروفها العائلية مع ظروف اسرته ، لكنه يراها ملائمة له مستصغرا شأنه لمجرد انه أخفق فى مواصلة تعليمه . وتلوح بوادر أزمة عائلية بسبب اختلاف المستوى الاجتماعى لكنها تتلاشى سريعا ويتفق الجميع على أن يباركوا رغبته ارضاءً له واشفاقا عليه من ايلامه أو حرمانه من شيء احبه بعد ان حرمته الحياة من الكثير .

فيعتبر ذلك «فضلاً» عائليا يحمله فى صدره لاخوته واسرته ويعبر عن فرحته بتقبيل يدى امه ويدى شقيقه الأكبر ولا ينسى أن يترك على أيديهما أثرا لدموعه !

وتتم قراءة الفاتحة فى حفل عائلى محدود انتظارا لعودة احد اشقائه من الخارج بعد ثلاثة شهور لإقامة حفل الخطبة .

ويحقق أول نجاح حقيقي فى عمله الحر خلال تلك الفترة وتلوح بشائر النجاح واعدة بالمستقبل السعيد . ويضاعف من جهده فى العمل ليحقق لنفسه حلمه بالزواج ممن يحب والاستقرار فى عش صغير ، فيشكو لأول مرة من الارهاق وينصحه الطبيب بالاعتدال فيستجيب قليلا ثم يجرفه الحماس من جديد . . وبعد اسابيع يعاوده الإحساس بالإجهاد فينصحه الطبيب بعرض نفسه على آخر معروف فى العاصمة . ويطيل هذافحصه ثم يطلب منه بعض الفحوص والتحاليل ويقرر أن يجرى له جراحة عاجلة . ويجتمع الاخوة فى المستشفى الخاص صباح يوم الجراحة . . فيقوده الممرضون فوق سريره الى غرفة العمليات ويشجعونه بالكلمات التقليدية فلا يخفف تشجيعهم من خوفه الشديد ولا يوقف نهر دموعه .

وتنتهى الجراحة بسلام ويغادر المستشفى بعد أيام ويمضى فترة النقاهة فى مسكن أخيه الغائب فى رحلة الغربة خارج البلاد ، فيراه اخوته يفتح دولاب ملابسه ويتحسس ملابس شقيقه الغائب ويبكى حنينا الى الأخ البعيد .

وتقترب فترة النقاهة من نهايتها ويهم بالعودة الى مدينته الصغيرة . . فلا يكاد يستعد لذلك حتى تذبل ورقة شبابه فجأة وتنطوى صفحته ويغادر الحياة . ويروى

من شهدوا لحظاته الأخيرة انه قد أغفى مطمئنًا بلا معاناة وبلا الم، وقد غطت وجهه ابتسامة حزينة كأنها يغفر بها للدنيا كل ما لقيه فيها من عناء وآلام ، ويُشهد بها الحاضرين على انه لم ينل من الحياة شيئا ذا بال رغم حبه للجميع واخلاصه لهَم ورغبته الدافقة في السعادة والسلام .

انها قصة واحد من البشر . . عرفته منذ طفولته . . واقتربت من عذاباته الكثيرة وافراحه القليلة ولم ينجح بُعْد الذكرى في ان ينسيني مودته ونفسه الطيبة المتسامحة .

ورغم اختلاف الظروف والملابسات فانى اتذكره دائما كلما قرأت قصة أي إنسان انطوت صفحته قبل أن يبدأ فى جنى ثمار كفاحه وتحقيق أحلامه فأتخيل لوعته وحسرته حين يتداعى كالمتسابق الذى يسقط فى الطريق فى نفس اللحظة التى يكون فيها خط الفوز قد لاح قريب المنال . وكلما قرأت قصة مماثلة أو اقتربت منها تمنيت لو كنت استطيع أن أجد لدى بطلها اجابة على هذا السؤال الحائر الذى طرحه ذات يوم الشاعر الامريكي جيم آجى : ترى ماذا يكون إحساس الإنسان حين يكون قد أثرى الحياة من حوله بكل هذا الحب للآخرين ثم لا ينال منها أو منهم إلا قليلا أو أقل القليل ؟ .

دمــوع .. لا يـراها أحــد !

تعلمت هذا الـدرس فى سن مبكرة . . واظننى قـد استفدت بـه فى كل مراحل حياتى بعدهـا . فحين كنت تلميذاً صغيراً فى السنة الثالثة الابتدائيـة . كان فصلنا فى مدرسـة النجاح الابتدائيـة بدسوق هـو «ثالثـة ثان» وكان لنـا مدرس يسرف فى انتقادنا واشعـارنا بسوء سلوكنـا بعقد مقارنة دائمـة بين تصرفاتنا كتلاميـذ صغار «همج» وبين التصرفات الـراقية المثـالية لتـلاميذ سنـة ثالثـة فصل أول . فنحن بين الحصص نتحـرك ونتكلم ونهرج ونضحك أمـا تلاميـذ ثـالثة أول فما ان يغـادرهـم مدرس الحصـة حتى يخرجوا كتـاب الدرس التـالى ويستغلوا فترة الـدقائق الخمس الخـالية فى قـراءة الـدرس الجـديد وهـم جـلوس الى مقـاعـدهم فى أدب وذوق وسـكون .

ونحن حين يعلن جرس المدرسـة انتهاء الحصص نتـدافع للخروج من الفصل والمدرسة . . أما تـلاميذ ثالثة أول . . فهم يخرجـون بنظام من الفصل ويودع كل منهم الآخـر متمنيا لـه يومـا سعيداً فى ظل والـديه ! وهكـذا فى كل شىء . . نحن اغبياء وهم اذكياء . . نحن كسالى وهـم نشطون تجرى فى عـروقهم الدماء اليابانية ! نحن فـاشلون وهـم نـاجحون ، حتى خيل الى لفترة طـويلة انهم ليسـوا من جنس البشر مثلنـا . . وانما من جنس الملائكة واحسست بعجـزي وقصورى وتسـاءلت عن مغزى الحكمة الالهية فى ان خلقنا الله من هذا النوع «المنحط» من البشر وخلق ابناء ثـالثة اول وحدهـم من ذلك الجنس الـراقى منهم . واعيانى التفكير فيما افعل لأكون منهم الى ان جاء يـوم انقطعت فيه عن المدرسة لمرض ألم بّـى ثـم عدت اليها

ومعي شهادة طبية بمـرضي وخطاب من ابى للناظر يفسر فيـه سبب انقطاعى عن الدراسـة لعدة أيام . . ودخلت فصلى وبـدأت الدراسة ثـم جاء الساعى يـدعونى لمقابلة الناظـر فخرجت معه لاقدم له الشهادة والخطـاب ومررت بفصل ثالثة أول وكان مدرسهم قـد تأخر فى دخوله . . ووجـدت بابه مفتوحـا فلم استطع مقاومة الرغبـة فى مشاهدة هـؤلاء الملائكة الابرار لأتعلم مـن سلوكهم ما يـرضى به عنى استـاذنا . . ونظـرت من البـاب المفتوح فـاذا بـالملائكة يتصـافعـون ويتضاربـون ويتبادلون الـركلات والسباب بأعلى الأصوات . . والفصل كلـه فى هرج شيطانى غريب ولم أر أحداً يجلس الى مكتبه ليراجع الدرس القادم فى هدوء وسكون . . ولا أحـداً يتمنى لزميلـه يـومـا سعيداً فى ظل والـديـه فشككت فى سـلامة نظـرى . . ومضيت الى غرفة الناظر مذهولا ودخلت اليـه فوجدت مدرس فصلنا واقفا أمامه وظهره للباب ولا يرانى وفوجئت به يشكو للناظر سلوك فصل الملائكة وشيطنتهم وضعف مستواهم الـدراسى ويصف له كيف اعيتـه الحيل معهم ويطالب بحبسهم لمدة سـاعتين عقب انتهاء الـدروس ويدافع عـن نفسه حين اتهمـه الناظـر بضعف اشرافه عليهم بأن ذلك غير صحيح بدليل ان تلاميذ فصل ثالثة ثان ممتازون !

واهتزت أشياء كثيرة فى مخيلتي في تلك اللحظة . . وسقط قناع الوهم أمامى الى الأبـد . . وحين كبرت استقـرت فى وجـدانى الحقيقـة التى عـرفتهـا فى الصغـر وتعمقت دلالاتها من خـلال تجارب العمـر . . فعرفـت انه ليس هنـاك فى الحيـاة «ثـالثة أول» ابـداً ولم اتمنَّ لنفسى حياة احـد غيرى مخدوعا بـالوهم الكبير بأنـه من سعداء ثالثة أول وانا من اشقياء ثالثة ثان . . وانما قلت لنفسى دائما : ومن أدرانى أنـه فى الحقيقة والـواقع كما يـوحى به مظهـره ؟ ولم اسمح للطمـوح الضارى بـان يعمينى عن الموجـود بالتطلع الى المفقود . . واقنعت نفسـى دائما بان اؤدى واجبى بكل ما استطيع من طاقة وتفان . . ثم ادع المستقبل بعد ذلك لما تقضى به ارادة الله سبحانه وتعالى . . راضيـا بما تحمله الىّ المقادير ومؤمنا بـأنه لا السعداء . . سعداء بنفس القدر من النعيم الـذى قد نحسدهم عليـه . . ولا المحظوظون محظـوظون

بنفس الدرجة التى نتوهمها عنهم بل ولا التعساء تعساء حتى النهاية وبلا أى وجه من وجوه التعويض النفسى عما فى حياتهم من مظاهر الشقاء . . وانما هناك ذلك المزيج الكيمائى المتعادل غالبا من كل هذه الأضداد فى حياة الانسان فلكل انسان من سعادته ما يرضيه . . ومن تعاسته الخاصة ما يشقيه .

ولا اعرف كم من السنوات قد مضت بغير ان اتذكر اسلوب مدرسنا القديم هذا فى استثارة حماسنا عن طريق اشعارنا بالغيرة والعجز تجاه تلاميذ مثاليين لا وجود لهم . . الى أن قرأت منذ أيام تلك القصة الجميلة للأديب العظيم انطوان تشيكوف فاذا بها تستدعيها بكل تفاصيلها من ذكريات الماضى وتجدد تأملاتى فيها . . اما القصة فاسمها «دموع لا يراها الناس» وفيها يخرج مجموعة من الأصدقاء من نادى البلدة الصغيرة فى الواحدة صباحا وهم سكارى . . فيبدى الضابط قائد حامية البلدة روبروتوسوف استياءه من ان ذلك النادى لا يقدم الطعام لرواده لأنه ناد صغير فى بلدة حقيرة صغيرة فى حين كان يتناول عشاءه بعد الشراب فى نادى المدينة المحترمة التى كان يعمل بها قبل ذلك ، ويشاركه الرأى مفتش المعهد الدينى ونائب مأمور الشرطة وباقى الأصدقاء . . وكلهم من كبار موظفى البلدة . . ويثير حديث الطعام شهيتهم فيروى كل منهم ذكرياته عن اشهى وجبة طعام تناولها فى الفترة الأخيرة فيزداد احساسهم بالجوع وتنتاب الضابط العسكرى نوبة من الشجاعة والكرم فيدعو أصدقاءه للذهاب معه الى البيت لتناول العشاء والشراب . . ويتصايح الأصدقاء مهللين لهذا الاقتراح الجرىء مع اشفاقهم على صديقهم من ازعاج زوجته فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، لكن الضابط الكبير لا يتراجع عن اقتراحه بعد ان تورط فيه ويصحب اصدقاءه للبيت ويوقظ الجندى المكلف بخدمته ويأمره بفتح قبو البيت وإخراج الطعام وزجاجة شراب . . ويجلس الجميع فى صالون الدور الأرضى سعداء . . فيعود الجندى الى الضابط بعد قليل ليبلغه ان باب القبو مغلق بالمفتاح ومفتاحه لدى السيدة زوجته . . فيقول الضابط : بسيطة سأصعد لاحضار المفتاح منها

ويتزايد اعجاب الأصدقاء بقوة شخصيته بينما يتسلل هو على اطراف اصابعه الى غرفة نوم زوجته ويوقظها برفق وخوف وهو يناديها : ياملاكي يا حبيبتي . . آسف لازعاجك ولكن ! فتفتح عينيها عابسة وتسمع ما يريد فتثور عليه ثورة عارمة وتلعنه وتلعن أصدقاءه وتطالبه بطردهم وتذكره بواجباته العائلية وتندب حظها الذى أوقعها فى هذا الزوج المستهتر . . فيتوسل اليها باكيا ان تعطيه المفتاح مؤكدا لها انه لن يأخذ من طعام الاسرة شيئا كثيراً . . وانما سيقدم لكل ضيف «خيارة» واحدة فقط مع كأس من الشراب لأنه فى موقف محرج مع اصدقائه ولا يجوز ان يفشل فى اطعامهم بعد ان دعاهم لذلك . فتتضاعف ثورتها وتنهال عليه بالسباب المهين . . ثم تنهال عليه صفعا وضربا وخربشة فى وجهه بأظافرها وجذبا من شعره . . وهو يبكى ويتوسل لها ويقول : اضربى كما تشائين اضربى زوجك كعادتك . . لكن ارجوك ان لا تفضحينى أمام أصدقائى خاصة وانها المرة الأخيرة التى اتورط فيها فى مثل هذا التصرف . . فلا يخفف تذلله من سخطها عليه وتواصل ضربه حتى تكل يداها من الضرب ثم تنهض أخيراً وترتدى فستانُها متأففة ويعود لاصدقائه وهو يسوى شعره ويرتب ملابسه التى تبعثرت خلال الشجار وعند باب الصالون ينفخ صدره ويرسم على وجهه ابتسامة تنم عن الثقة ثم يدخل قائلا لأصدقائه : ماذا أفعل؟ . . لقد حاولت ان امنعها من النهوض من الفراش لانها مريضة . . لكنها اصرت على ان تنهض لتقوم بخدمتكم بنفسها !

فلا يتمالك أصدقاؤه انفسهم من اعلان الاعجاب بهذا الحب العظيم الذى يدعو زوجة مريضة للاصرار على خدمة اصدقاء زوجها فى الثانية بعد منتصف الليل لكى تشرّف زوجها امامهم . . يا الهى ما هذا الحب العظيم؟ . . ما هذا الاخلاص ؟ ويلاحظ احدهم خدشا فى صدغه ويسأله عنه فيبرره له بأنه اصطدم بحافة الفراش فى الظلام وهو يحاذر من ايقاظ زوجته لعلمه بمرضها . . فيزداد الاعجاب بهذا الحرص المتبادل بين الزوجين على راحة الآخر ثم يقطع عليهم

الحديث فجأة دخول السيدة ماشا زوجة الضابط الكبير متهللة فنهضوا جميعا اكبارا لها فقالت لهم والابتسامة العريضة تملأ وجهها :

أوه . . كم هو لطيف منكم ان تحضروا الى بيتنا فى مثل هذا الوقت ما دمتم لا تحضرون اليه فى النهار . . لقد كنت نائمة . . ثم سمعت اصواتا فسألت نفسى ترى من هم زوار زوجى الحبيب وعرفت منه أنه أنتم فلم أطق البقاء فى الفراش لحظة واحدة رغم مرضى . . أوه يا زوجى العزيز كم أنا شاكرة لك ان احضرت الى بيتنا هؤلاء الأشخاص الفضلاء . . دقائق فقط ويكون العشاء جاهزاً عن اذنكم . . ثم غادرت الصالون والأصدقاء يتمايلون طربا واعجابا . . والضابط الكبير يتيه فخرا بزوجته وقوة تأثيره عليها!

وتناول الأصدقاء عشاءهم وشرابهم فى بيت الضابط الكبير فى سلام وعاد كل منهم الى بيته مع نسمات الفجر الأولى ، فما ان دخل الى غرفة نومه حتى استيقظت زوجته وانفجرت فى وجهه بعاصفة من السباب والتأنيب والتقريع لأنه عاد الى بيته يتمايل من السكر فى الفجر ولأنه لا يهتم بزوجته وأولاده ولا يحترم مركزه . . الخ . . الخ . .

فقال كل منهم لزوجته : أليس عندك شيء آخر سوى السباب واللوم والتقريع . . لماذا لا تفعلين ما تفعله السيدة ماشا زوجة قائد الحامية العسكرية ؟ لقد كدت أبكى تأثرا بلطفها مع زوجها وحماسها لخدمة ضيوفه رغم تأخر الوقت ورغم أنها مريضة . . وقد فعلت ذلك لكى تشرّف زوجها الذى تحبه وتحترمه أمام أصدقائه . . فلماذا أنت وحدك التى تتصرفين هكذا!

وبات كل منهم ليلته يغبط الضابط الكبير على سعادته مع زوجته الرقيقة الملائكية المتفانية فى اسعاده . . وينعى على نفسه حظه العاثر الذى أوقعه فى زوجته الشرسة النكدية العبوس هذه !

وهكذا كل البشر دائما يتصورون ان الآخرين أسعد حالا منهم ويعذبون أنفسهم ليس فقط بطلب السعادة لأنفسهم وانما أيضا بالأمل فى أن يكونوا أكثر

سعـادة من الآخرين . . وهـو أمل يرى المفكـر الفرنسى مـونتسيكو أنـه مستحيل لسبب هام هو اننـا نعتقد دائما ان الآخرين أسعد حالاً ممـا هم عليه فى الواقع لكنى اعفيت نفسى من هـذه الـرغبـة المستحيلـة منـذ زمان طـويل ليس اقتنـاعـًا بـرأى مونتسكيو الذى لم اطلع عليه الا منذ سنوات قليلة . .

وانما بفضل مدرسنا القديم الذى تعلمت من حكايته الساذجة أنه ليس فى الحياة «ثالثـة أول» فى أى مجال من مجالاتها . . وان كل البشر مثلنا «ثـالثة ثـان» لكن أكثر الناس لا يعرفون أو لا يصدقون !

مع مرتبة الشرف !

لست اذكـر متى على وجه التحـديد قرأت هـذه الأسطورة التى رواهـا حكيم صينى . . لكن المؤكـد انى قرأتها فى وقت مبكـر من صباى أو شبابـى فساهمت فى خلق تلك الحالة الـوجدانية التى تجد فيها الآيـة الكريمة «وعسى أن تكرهـوا شيئًا وهو خير لكم» ارضها الخصبة فى نفسى . فلقد روى الحكيم الصيني ان شيخا كان يعيش فوق تل من التلال ففر جواده وجاء اليه جيرانـه يواسونه فى هذا الحظ العاثر فاجابهم بلا حـزن : ومن ادراكم انه حظ عاثر ؟ وبعد أيام قليلـة عاد إليه الحصان مصطحباً معه عدداً من الخيول البرية فجـاء إليه جيرانه يهنئونه بهذا الحظ السعيد ، فأجابهم بلا تهلل ومن أدراكم أنه حظ سعيـد ؟ ولم تمض أيام حتى كان ابنه الشاب يدرب احد هذه الخيول البرية فسقط من فوقـه وكسرت ساقه وجاءوا إليه يواسونه فى هذا الحظ السيىء فأجابهم بلا هلع : ومن ادراكم انه حظ سيىء ، وبعد اسابيع قليلة اعلنت الحرب وجندت الدولـة شباب القرى والتلال واعفت ابن الشيخ من القتال لكسر ساقه فمات فى الحرب شباب كثيرون . . وهكذا ظل الحظ العاثر يمهد لحظ سعيد والحظ السعيد يمهد لحظ عاثر إلى ما لا نهاية فى الأسطورة . . واحسبها كذلك فى الحياة الى حد بعيد لهذا فأهـل الحكمة لا يغالون فى الحزن على شىء فاتهم لانهم لا يعرفون على وجه اليقين ان كان فواته هو شر خالص . . أم خير خفى اراد الله بـه ان يجنبهم ضرراً أكبر . . أو اراد لهم بعده خيرا أعم، ولا يغالـون أيضًا فى الـزهـو والابتهـاج بشىء لنفـس السبب . . وانما يشكـرون السماء دائماعلى كل مـا اعطتهم ويفـرحون بـاعتدال . . ويحزنـون على ما فـاتهم بصبر وتجمل . وما أكثـر المواقف التى تذكـرت فيها هـذه الأسطورة الصينية فى حيـاتى ، لكن هناك مـوقفا

منها أكثـر طرافة من غيره . وقد جـرى لى منذ حوالى عشرين عـاما حين رشحتنى نقـابـة الصحفيين للسفـر الى المانيـا الشرقيـة فى دورة سيــاسيـة عن طـريق الاتحاد الاشتراكى القديم . وكان أمين الدعوة والفكـر بالاتحاد الاشتراكى قد عقد اتفاقية سياسية مع الحزب الشيوعى الألمانى على تنظيم دورتين تستغرق كل منهما ٦ شهور «لتـوعيـة» شبـاب العـاملين فى الاعـلام والصحافـة فى مـدرسـة الكـادر التـابعـة للحزب . . وطلب من نقـابة الصحفيين والاذاعة والتليفـزيون تـرشيح اعداد من شبابها لاختبـار «ثوريتهم» أمـام لجنة من كبار اعضـاء الأمانـة بالاتحاد الاشتراكى واختيـار اكثرهـم تقـدميه للسفـر فى البعثـة الأولى . . ورشحتنى النقابـة ضمن من رشحت وذهبت الى مقـر الاتحاد الاشتراكى فى مـوعد الاختبـار فـوجدت اعـدادا كبيرة من الصحفيين والاعلاميين تنتظر دورها للمثول أمام أعضاء اللجنة . .

ثم جاء دورى ودخلـت مع اثنين من الزمـلاء احدهما من الاهرام والآخـر من مؤسسـة أخرى فـوجدت مائدة عـريضة يجلس إلى جـانب منها ٤ اعضـاء احدهم مـذيع بصوت العـرب والآخـر محام ناشئ بـالاسماعيليـة والثـالث استاذ جـامعى مـاركسى معروف أمـا الرابع فكـان من معجزات ذلك الـزمان العجيب ، فقـد تم تصعيده سيـاسيا بالاتحاد الاشتراكى وفوجئنـا به نجما لامعا على صفحات جـريدة الجمهوريـة يقود حملـة ضد الاتجاهات «الخيـانية الاستسـلامية» الكـامنة فى بعض أجهزة الاعلام وخاصة فى الاهرام ورئيس تحريره محمد حسنين هيكل ! ولاحظت بدهشة ان مناضل السويس قد اشاح بـوجهه عنا نحن الثلاثة ولم يشترك فى المناقشة عــزوفـا عن ان يخاطـب اثنين من «الهيكليين» من أمثـالنــا أو حتى أن تقع عينــاه «التقدميتـان» عليهما ! وجاء دورى فى المناقشـة فسألنى الاستاذ الجامعى عن سبب رغبتى فى السفر فى هـذه البعثة . فأجبته بسذاجـة وبلا أى محاولة لادعاء التقـدمية والثـوريـة بأنها فرصـة لى لـلاطـلاع المنهجى المنظم على أسس الفكـر الماركسى فى مـدرسة حـزبية تـدرسـه لطلابها . . وذلك بغض النظـر عن اقتنـاعى به أو عـدم اقتناعى . . كما انها فرصة للعودة لحيـاة الدراسة بعد ان استغرقنى العمل الصحفى

اليومى لعدة سنوات . فالتقط الخيط مذيع صوت العرب وقال لى : عظيم . . ما رأيك اذن فى هذا المانشيت ؟ وقدم لى نسخة من الأهرام الصادر فى ذلك اليوم من بداية عام ١٩٧١ وكان لعنوانه الرئيسى ضجة سياسية وقتها . . فقد كانت مهلة وقف اطلاق النار بيننا وبين اسرائيل على جبهة القناة فى حرب الاستنزاف تقترب من نهايتها ورأت حكومة السادات الذى كان قد تولى الحكم منذ شهور قلائل انها غير مستعدة لاستئناف حرب الاستنزاف التى اصابت مدن القناة بخسائر جسيمة ، فنشطت الجهود الدبلوماسية الدولية لمد وقف اطلاق النار ، فى حين كانت مجموعة الاتحاد الاشتراكى التى تفجر الصراع بينها وبين السادات ترى وجوب استئناف معارك الاستنزاف للمحافظة على درجة سخونة الجبهة الداخلية فى مصر بغض النظر عن اية خسائر بشرية أو مادية تنتج عنها . . وفى غمرة هذا الصراع إنحاز رئيس تحرير الأهرام محمد حسنين هيكل إلى جانب السادات فاعتبره مناضلو الاتحاد الاشتراكى جزءا من المؤامرة الامبريالية لتفريغ القضية من محتواها «النضالى» . . . الخ هذه الخزعبلات المعتادة . ثم خرج الأهرام لسوء حظى يوم الاختبار بمانشيت يتحدث عن أن الجهود الدبلوماسية الدولية على أشدها لمد وقف اطلاق النار ، فجعل منه أعضاء اللجنة مادة أساسية في اختبار ثورية المتقدمين للبعثة فمن أدان الاتجاهات «الخيانية الاستسلامية» المتخفية وراء سطوره . . كان جديرا بثقة اللجنة . . ومن لم يكتشفها كان لا أمل فى تقدميته أو أحقيته فى الإلتحاق بهذه الدورة . .

ونظرت حولى فرأيت المناضلين يركزون انظارهم علىَّ بما فيهم مناضل السويس العازف عن المناقشة انتظارا لسماع رأيى فى هذه المؤامرة المفضوحة وبغباء لا حيلة لى فيه لأنه يُستنفر فى مثل هذه المواقف ولا أستطيع رده . قلت للسائل : إنه مانشيت صحفى هام يكشف أن هناك جهودا سياسية دولية وسرية تسعى لتأجيل مد وقف إطلاق النار وأنه من الأرجح أن هذه الجهود سوف تتوصل الى ذلك . فقال لى المذيع : هذا من الناحية الصحفية البحتة لكنى أخاطب فيك «ثوريتك» ألا ترى أن

هذا المانشيت يضعف الروح القتالية لدى الجنود ويثبط الروح المعنوية لدى الشعب المتوثب لاستئناف الكفاح المسلح ضد اسرائيل . . أدركت فى هذه اللحظة أن سفرى فى البعثة معلق فى طرف لسانى فاذا أردت السفر ينبغى علىّ ان «أزايد» عليه وان أخطب فيه خطبة تندد بهذه المؤامرة وتؤكد أن الشعب من اسوان للاسكندرية لا ينام الليل انتظارا لانتهاء المهلة لكى تعود المدافع والطائرات تئز فى جبهة القناة مع اختلاف هيّن هو ان مدافعنا وطائراتنا تضرب فى رمال سيناء وهى أرضنا ولا تقترب من اسرائيل ومدافعهم وطائراتهم تضرب مدن القناة وتهجر مئات الألوف من سكانها إلى ريف الدلتا المزدحم بسكانه وفجأة أحسست براحة نفسية غريبة وزالت رهبة الامتحان من نفسى واحسست بحرية عجيبة بعد أن تخلصت من رقّ الأمل والرجاء فى البعثة . . وعرفت معنى العبارة التى تقول «اليأس حر . . والرجاء عبد رقيق» فقلت للممتحن بمنتهى الهدوء والارتياح واليأس من السفر : لا ياسيدي هذا المناشيت لا يضعف الروح القتالية لدى الجنود أو الشعب وليس جزءا من مؤامرة خيانية أو إستسلامية ، والشعوب تقاتل حين تكون مستعدة للقتال وليس من الوطنية أن نسخنها لمعركة ليست قريبة أو نوهمها بمعركة لم يئن أوانها بعد ونظل نوقد النار باستمرار تحت مرجلها . . ونستمتع بمرآها وهى تتلظى بالنيران بحجة الحفاظ على ارتفاع الروح القتالية . . فاذا جاءت المعركة لم يبق من طاقتها ولا من روحها المعنوية ما تقدمه لها حين تشتد الحاجة لعطائها وهذه الصحيفة صحيفة مصرية تعمل لحساب مصر ولا يمكن أن تكون طرفا فى مؤامرة امبريالية أو غير امبريالية على شعبها وجنودها .

وانهيت كلامى وانا فى قمة السعادة واليأس !

وجاء الدور على زميلى الذى يعمل بمؤسسة أخرى فانبرى يندد بمحاولات اضعاف الروح المعنوية للشعب كله بمثل هذه الأخبار المدسوسة ـ ويؤكد ان الشعب كله يريد القتال الآن ـ لاحظ اننا كنا فى بداية عام ١٩٧١ ولم يكن جيشنا قادرا وقتها على خوض المعركة ـــ وانه سمع من مكوجى فى أحد المؤتمرات الشعبية

انه لم يقارب زوجته منذ هزيمة يونيو وأقسم ألا يقترب منها إلا بعد النصر ـ كان الله في عون زوجته ! وللأمانة فان المناضلين لم ينخدعوا بهذه الإكذوبة وتساءلوا باسمين عما إذا كانت هناك أسباب صحية أخرى لهذه الوطنية المفرطة ! .

وخرجت من لجنة الاختبار مرحا ، ونزلت إلى صديقى الذى ينتظرنى بسيارته على كورنيش النيل وما أن رآنى اقترب مبتهجا حتى تساءل باسما : خيرا ؟ فأجبته وأنا أركب بجواره : كل خير . . رسبت بجداره ومع مرتبة الشرف !

وسافر أعضاء البعثة الى ألمانيا الشرقية ولم تمض شهور حتى كسب السادات الصراع بينه وبين مجموعة الاتحاد الاشتراكى وزج بهم جميعا فى السجون ، ودخل كل أعضاء لجنة الاختبار السجن وابعدوا عن مواقعهم . . أما أعضاء البعثة فقد عادوا بعد أسابيع فوجدوا الدنيا قد تغيرت . . وفوجىء معظمهم بإبعادهم عن مجال الإعلام بكل أسف وبادراجهم فى قوائم السادات السوداء بتهمة عضوية التنظيم الطليعى الذى كان حزبا سريًا داخل الاتحاد الاشتراكى وتم اختيار معظم أعضاء البعثة من بين اعضائه أو من المرشحين لعضويته . . ولم أكن من هؤلاء . . وربما كنت من اولئك الذين كانوا مرشحين لاختبار جدارتهم لكنى افسدت على نفسى كل شيء . . والحمد لله على كل حال فلو كنت قد تمسكت بالرجاء لربما فزت بالبعثة وبما يترتب عليها من تبعات . . ولربما تغير طريق حياتي . . لكنها الأسطورة الصينية القديمة . . والأرض الخصبة التى انغرست فيها تلك الآية الكريمة منذ سنوات طوال فجعلتنى فى كثير من الأحوال لا آسى كثيرا على ما فاتنى . . ولا أرقص طربا لما ينالنى من خير . . وإنما أشكر ربي كثيرًا وأدعوه أن يكون خيرًا حقيقيًا لا شر بعده . . آمين يا رب العالمين .

القيثــــــارة !

كـان صيفا حـزينـا فى حيـاتى فقـد فقدت فيـه شقيقى الأكبر ورفيق طفـولتى وصباى وصديق شبابى ورجولتى ، فـأحسست ان جزءا من عالمى الخاص قد فقد بعض رموزه إلى الأبـد . فلقد كـانت لنا ذكريـات مشتركة لا يستشعـر أحد غيرى وغيره اهميتهـا . . ولا استطيع الحديث عنهـا إلا معـه . . فـان تحدثت فيهـا إليـه ومضت فى ذكـراتنا دلالاتها القـديمـة وأعدنـا منـاقشتها والجدال حـولها كأنها هى أحداث حاضرة ساخنة تنتظر منى ومنه قرارنا العاجل فيها .

وكـانت الأقدار المأسـاوية قـد قضت علىّ بأن ألازمـه فى ايامـه الأخيرة إلى أن إنطوت الصفحة وسقطت اوراق الشجرة ، فشهـدت المراسم الحزينة ثم عدت الى عملى وبيتى مهزوما فلم أطق البقاء فى مصر وقررت تقـديم موعد رحلتى السنوية إلى أوربا لأفر اليها بعيدا عن أرض الأحزان .

وانشغلت بالإستعداد للسفـر ورتبت مواعيد سفرى بحيث أعـود لبلادى قبل ذكرى الأربعين بيومين فقط . وركبت الطائرة وصـدرى مثقل بهمومه ، وأطللت من نافذتها على باريس التى اعتدت ان استقبلها بالتحفز النفسى للابتهاج بلا أدنى احساس بالبهجـة وتوجهت إلى فندقى الصغير الذى اعتـدت النزول به كأنها أؤدى واجبـا لا مفـر مـن أدائه ودخلت غـرفتى وادرت جهـاز التليفـزيـون الصغير ثم انشغلت عنه بفتح حقيبتى واخـراج ملابسى وترتيبهـا فى دولاب الملابس ثم اعادة ترتيب قطع الأثـاث الصغيرة فى الغرفة بما يتفق مع ذوقى واحتياجـاتى خلال فترة اقـامتى بها فاذا بى اسمع فجأة أغنيـة عبـد الوهـاب القديمـة «جفنه علم الغـزل» تنساب في عـذوبه فى غرفتى . وتـوقفت مشدوهـا أمامها وخيل إلى أن أحـد نزلاء

الفندق من العرب يدير شريط الأغنية فى غرفة قريبة من غرفتى فاقتربت من الباب لأحاول معرفة مصدر الصوت وتلفت حولى فاذا بالصوت الجميل ينساب من جهاز التليفزيون الصغير فى غرفتى . . واذا باسم عبد الوهاب يملأ شاشته مسبوقا بعباره الموسيقار العربى العظيم ، بين اسماء أخرى تتتابع على الشاشة بما يوحى بأنها نهاية مسلسل تليفزيوني ، ثم عاد التليفزيون إلى تقديم برامجه الصاخبة ، وعرفت فيما بعد أن التليفزيون الفرنسى يقدم مسلسلا اجتماعياً اسبوعياً تجرى بعض احداثه فى الشرق العربى وأراد أن يوحى بجوه فاختار اغنية عبد الوهاب الجميله ليجعل منها مقدمة المسلسل ونهايته !

وكان اختيارا موفقا للتليفزيون الفرنسى . . وغير موفق بالنسبة لى اذ ما أن انتهت الأغنية التى لم تستغرق أكثر من دقيقتين حتى كانت قد اعادتنى إلى كل ما حاولت الفرار منه فى مصر .

فقد أثار صوت عبد الوهاب الجميل أشجانى وذكرنى ببعض رموز حياتى التى فقدت معناها الى الأبد مع رحيل رفيق طفولتى وصباى .

فلقد كان عبد الوهاب هو عشقنا المشترك فى صبانا وبواكير شبابنا لكنى بتطرف العاطفي المألوف فى ذلك الحين وصلت فى عشقى له إلى حد التعصب الشديد فأصبحت الإساءة إلى عبد الوهاب أو إبداء أى انتقاد له جريمة كافية فى نظرى لكراهية صاحبها أو لمقاطعته !

ولست في حاجة لأن اقول لك أنى كنت اتتبع صور عبد الوهاب فى المجلات والصحف وأقصها وأعلقها فى كل مكان بغرفتى ، وانى كنت انتظر صدور مجلة الاذاعة المصرية كل اسبوع لأنكب على برامجها المنشورة فى دراسة متأنية عميقة بحثا عن مواعيد إذاعة اغانيه واضع تحتها خطوطا حمراء لتمييزها والتهيؤ لسماعها .

ومع ذلك فلم أكن من الجيل الذى شهد شباب عبد الوهاب وانما كنت من الجيل الذى عاصر ظهور عبد الحليم حافظ وكانت آهاته تدغدغ مشاعرهم وتؤرخ لذكريات الحب والغرام فى حياتهم وكنت مع شقيقى وعدد من اصدقائنا من

محبي عبد الوهاب وعشاقه وتفردت بينهم بالتطرف فى حبه إلى حد التلذذ بسماع أحاديثه الاذاعية والترنم بكلماته والإعجاب الفائق بلباقته وذكائه وقدرته على أن يجد دائما اجابة مهذبة وذكية لكل سؤال .

ومع أن فترة الصبا وبواكير الشباب هى سن الرومانسية والمشاعر العاطفية فقد كانت الأغانى التى نتحلق حول الراديو لسماعها مع مجموعة الأصدقاء هي قصائد «دعاء الشرق» و «النهر الخالد» و«فلسطين» . . وغيرها! وحين غنى عبدالوهاب قصيدته دعاء الشرق وهى قصيدة من الشعر العربي الرصين عن احوال الشرق العربى إعتبرناها حدث العام الفنى ، وحين غنى قصيدة «النهر الخالد» للشاعر محمود حسن اسماعيل وهى عن نهر النيل إعتبرناها حدث الموسم وكل موسم ، وحين غنى قصيدة «فلسطين» لأمير الشعراء احمد شوقى بمطلعها الشهير «أخى جاوز الظالمون المدى» إعتبرناها قصيدة العصر وكل عصر .

وحتى على الجانب العاطفى كانت أحب أغانيه إلى أيضا مما يعتبر من الشعر العربى الرصين الجميل الذى يصعب فهمه على من آن فى مثل أعمارنا .

ومع ذلك فقد كنا نهيم بها ونرددها وقد لا نفهم بعض معانيها وبعضها بالفعل لم استجل كل معانيه إلا بعد أن تخطيت الصبا وادركتنى حرفة الصحافة والأدب ، فلقد كنت متيما مثلا بقصيدة جميلة للشاعر صفى الدين الحلىّ هى «قالت» وهى عبارة عن حوار جميل بين محب ومحبوبته يبدأ فيها كل بيت بكلمة قالت فتقول :

قالت تخليت . . قلت عن راحتى !

وتمضى القصيدة على هذا النحو ، وقد ردد عبد الوهاب هذه العبارة بالذات «قالت تخليت» ٩ مرات ، وكان من إختباراتنا الذكية للمريد الجديد الذى يرغب فى الانضمام لحلقة عشاق عبد الوهاب من امثالنا هو : اذكر كم مره ردد عبد الوهاب «قالت تخليت» في قصيدته المعروفة؟ فان عرف الاجابة فهو مريد صادق وان لم يعرفها طالبناه بالمزيد من الجهد ليصل معنا الى مرتبة المريد العاشق !

وكثير من اصدقائى شاركونى عشق عبد الوهاب فى تلك المرحلة وكنت

اكثرهم اعجابا بقصيدة عاطفية جميلة له لا أحسبها من اشهر قصائده لكنى لم اسمعها مرة حتى الآن إلا وتسلل الاحساس بالشجن والحزن المبهم الغامض إلى نفسى ، وهى قصيدة «القيثارة» للشاعر الرقيق الذى لم ينصفه زمانه الدكتور ابراهيم ناجي :

أى سر فيك إنى لست أدرى
كل ما فيك من الأسرار يغرى
خطر ينساب من مفترّ ثغر
فتنة تعصف من لفته نحر
قدر ينسج من خصله شعر
زورق يسبح فى موجه عطر

أما ختام القصيدة الذى كان يسلمنى دائما لذلك الحزن المبهم وما زال فهو ذلك البيت الذي يقول :

فى عباب غامض التيار يجرى
واصلا ما بين عينيك وعمري

وحين شببت عن الطوق وابتليت بإدمان القراءة والكتابة بحثت طويلا عن هذه القصيدة فى دواوين ناجى فلم أجد بين قصائده قضيدة اسمها القيثارة ثم عثرت عليها بعد عذاب فى ديوان ليالى القاهرة فاذا بها مجموعة من ابيات قصيدة أخرى تحمل إسم الخريف لكن عبد الوهاب اختارها بذوقه الشعرى الراقى ولحنها وأسماها القيثاره !

ويكفى للإشارة إلى تأثير الفن الراقى فى وجدان الانسان أن أقول لك أنى احببت فى صغرى كل المعانى والأماكن التى تغنى بها عبد الوهاب فى أغانيه وقصائده ، فأحببت مدينة فينيسيا الإيطالية وحلمت بزيارتها ورؤية جند ولها الأسود الشهير مع قصيدة على محمود طه عنها . وكانت كلمات هذه الأغنية تتردد صامتة فى وجدانى حين زرتها لأول مرة وأنا فى الثلاثين من عمرى ، وأحببت نهر

بـردى ودمشق عـاصمـة سـوريـا رغـم أنـى لم أرهما حتى الآن مع كلمات قصيـدة شوقى :

سـلام مـن صبـا بـردى أرق
ودمـع لا يكفكـف يـا دمشـق

وكـان أول ما خطـر فى ذهنى حين زرت بغـداد لأول مرة منـذ ٩ سنوات هـو كلمات قصيدة شوقى التى غناها عبد الوهاب : يا شراعا وراء دجلة يجرى ، وكان أول ما بحثت عنه حين زرت الأقصر لأول مرة فى سن الشبـاب هو معبد الكرنك الذى تغنى به عبدالوهاب في قصيدته الشهيرة ، واحببت جبل لبنان على البعد لأنه على روابيه ولدت قصيدة شوقى التى غناها عبد الوهاب :

يـا جـارة الـوادى ظمئت وعـادنى
مـا يشبـه الأشـواق مـن ذكـراك

كما ولدت أغـانى أخـرى جميلة شدا بها صـوت عبد الـوهاب الجميل لشـوقى مثل :

النيل نجـاشى . . حليـوه اسمـر
عجب للـونـه دهب ومـرمـر

أما أغانى عبد الوهاب العاطفية القديمة . . فما اكثر ما أثارت من شجونى وما زلت حتى الآن احس لسعة الغدر وحـرقة الإنسان المغدور بـه كلما سمعت صوته المحروق وهو يغنى موال «فى البحـر لم فتكم فى البر فتونى»! «بالتبر لم بعتكم بالتبن بعتونى»! إلى أن يصل إلى وعيد المحب المظلوم لمحبوبه الغادر فيقول له :

ان عـدت بـالمره . . هـاتـوا المر واسقـونى

فانظر كم مرة في حياتك وحياة كل انسان احسست بإحساس عبد الوهاب هذا وتمنيت لـو كانت لك حنجـرته الـذهبية لتنشـد خائن الـود والعشرة هذه الكلمات البـاكية . . وتتـوعـده بهذا الوعيـد اليـائس ، وانظر كم مـرة تـوعدت ثم عـدت وتجرعت المر كارها أو راضيا !

والحق ان تأثير عبد الوهاب عليّ قد تملكنى فى طفولتى وصباى . . وكان سحره لى طاغيا فى كل شىء . . اللهم إلا شىء هين كان مثار تندر فى طفولتى هو ان اغنيته الشهيرة عن «الميه التى تروى العطشان» ونصيحته الذهبية للمهموم بأن «صدقنى خد لك حمام»! لم تكن تقلل من كراهيتي التقليدية كطفل لموعد الحمام في برد الشتاء في حين كانت تؤتى ثمارها بسهولة فى حر الصيف !

وصاحبنى هذا التأثير في شبابي . . ثم علمتنى خبرة السنين الإعتدال فى مشاعر الحب والكراهية تجاه كل شىء في الحياة ، فتحول تعصبى القديم لعبد الوهاب إلى اعتزاز ناضج به يسمح لى بأن اعجب بما يستحق الاعجاب فيه وهو كثير . . وأن اضع كثيرا من الأمور فى نصابها الصحيح ، ورغم حبى له الذى صاحبنى فى كل مراحل حياتي فانى لم أسع أبدا الى التعرف عليه أو مقابلته أو حتى اجراء حديث صحفى معه طوال سنوات عملى بالصحافة ، ولم استغرب ذلك من نفسى ، فلقد اعتدت دائما ألا أسعى للإقتراب ممن اكنُّ لهم مشاعر الحب العميق والاعجاب الشديد بهم ، ربما تهيبا للإقتراب منهم وربما خوفا من ان اكتشف بالإقتراب الشخصي منهم ما يتناقض مع الهالة التى استقرت فى أعماقى لهم فأحزن لذلك وافقد جزءا عزيزا من وجدانى ارتبط بهم لفترة طويلة من حياتى وقد التزمت بنفسى هذا السلوك مع معشوقى الآخر الذى استولى على وجدانى الأدبي والثقافى ابتداء من أواخر سن الصبا وهو الاستاذ نجيب محفوظ . . ، حتى أنى كنت اسعى إلى مقهى «ريش» فى الستينيات لأراه جالسا بين محبيه وتلاميذه وأرفض بإصرار دعوة اصدقائى لتقديمى له مكتفيا بالنظر إليه من بعيد مع أنى اعيش معه فى خيالى كل ليلة ومع انه من الأدباء والفنانين القلائل الذين تزيدك معرفتك الشخصية له افتتاناً به وبتواضعه وبسجاياه النادرة . ثم دارت دورة الأيام وفاز أديبى المفضل بجائزة نوبل وأودع نصيبه من الجائزة فى بنك مصر فى وديعه خصص عائدها للانفاق فى وجوه الخير بشرط أن توجه إلى هيئات وليس إلى أفراد ، واختار شخصى الضعيف ليكون مفوضا كمشرف على بريد الأهرام فى انفاق هذا العائد

مشترطا عليّ عدم الرجوع إليه فى ذلك ومع هذا فلم استطع التخلص حتى الآن من تهيبى القديم للإقتراب الشخصى منه . . وقد تعجب اذا علمت ان ذلك كله قد تم وما زال ينفذ منذ عامين وليست بيننا حتى الآن الا الاتصالات التليفونية على البعد ومع كل الحب والاحترام من جانب المريد القديم لشيخه العظيم !

ثم مضت السنوات وعبد الوهاب يتألق جمالا وفنا وإبداعا فى شيخوخته . . وقد استقر حبى له فى وجدانى كأنه من ثوابت حياتى ، وكلما نظمت الهيئات الفنية احتفالا بعيد ميلاده حرصت على متابعته فى التليفزيون باهتمام شديد واعجبت منذ سنوات بأغنية جميلة شدا بها له تلاميذه فى أحد هذه الاحتفالات هي أغنيه : «سبحان الوهاب يا عبد الوهاب» واعجبت أكثر بأن فارسى القديم يمضى فى شيخوخته بجلال وجمال وبلا متاعب صحية تخدش هيبة الصور القديمة وضحكت من أعماقى حين سألوه فى احتفال بعيد ميلاده مذاع بالتليفزيون : ماذا تطلب من شباب الفن ؟ ، فاذا بعبد الوهاب المشهور بالخوف على نفسه وصحته يقول بعفوية خبيثه : أطلب منهم أولا الا يحسدوننى ثم يتبع ذلك بأن يشير بأصابع يديه المفتوحتين كالمروحة فى وجه الكاميرا قائلا : الله أكبر الله أكبر . . الله أكبر ، فانفجر الجميع ضاحكين وانفجرت ضاحكا فى بيتى وهتفت قائلا له كأنه كان يقصدنى أنا بهذه الاشارة : ليس حسدا والله . . لكنه حب من القلب ودعاء لك بان يديم الله عليك نعمة الصحة وجمال الشيخوخة وطول العمر إلى ما شاء الله .

وتمنيت من كل قلبى لو كان يستطيع أن يسمعنى وان يستجيب الله لدعائى فيطيل عمره لمائة عام أو أكثر وتندرت بهذه القصة طويلا ورويتها لكل من أعرفهم فى مصر وفى رحلاتى للخارج .

ثم سافرت منذ اسابيع إلى باريس ولندن فى رحلتى السنوية مبكرا هذه المره عن موعدى بشهرين . وفى لندن سمعت بخبر رحيل معشوقى القديم من التليفزيون البريطاني فاكتأبت له . . وزادتنى سماء لندن الكابيه وجوها المكفهر اكتئابا به .

ثم اجتمعنا فى شقة احد الأصدقاء المقيمين للعشاء فتابعت من محطة التليفزيون

العـربيـة التى تبث بـراجهـا من دبى للعـرب المقيمين فى لنـدن مشـاهـد الـرحيل للموسيقار العظيم . . وخيَّـم جو ثقيل على المكان ونحن نرقب الجماهير الغفيره تودع فنانها الراحـل بالبكاء وترديد عبارة : لا إله إلا اللـه فترقرقت دمعه فى عينى ولاحظ ذلك احدهم فسـألنى : حزنا على عبـدالوهاب ؟ فقلت لـه : حزنـا عليه وعلى أيـام البراءة والسعـادة وعلى الأعـزاء الـراحلين وعلى أشيـاء كثيرة مضت وانقضت معـه إلى الأبـد فيا ألف خسـاره ياأسـتاذ عبـد الوهـاب . ويـا ألف خسـارة يا كل الأعزاء ويا كل هذه الأشياء الغالية .

لم تأت بعد !

سأظل أرددها وراء الشاعر التركى ناظم حكمت ولن أملّ :

«اجمل الانهار لم نرها بعد . . أجمل الكتب لم نقرأهـا بعد . . اجمل أيام حياتنا لم تأت بعد!»

فلقد كتبها فى رسـالة الى زوجته من سجنه يشـد بها أزرها وأزره . . ويقاوم بها اليأس من اجتماع الشمل واستعادة أيام السعادة والحرية ولم تكن كل الظروف حوله تبشر باحتمال تحقيق مـا يصبو اليه ورغم ذلك فلم تمض فترة طويلـة حتى خرج من سجنه وانشد مع زوجته اناشيد السعادة .

ومنذ قرأت هـذه الأبيات الجميلة وأنا أستعين بها على لحظـات السأم والقنوط التى تعترض حياة أى انسان . . وانشدها لنفسى حين يتكثف الهم فى صدرى . . . واستيعدها صامتا فى ذهنى فى أيام المحن والشدائد .

فتجارب الحيـاة قد علمتنـا منذ زمن طـويل انه لا شـىء يتجمد فى مـوقعه الى الأبد . . وان الفُـلْك دائما دوار يحمل الجديد والغريب كل حين ، وانه بغير التطلع دائما الى الغد بقلب يـرجو رحمة ربه ويخفق دائما بـالأمل لا يستطيع أحد أن يتحمل الحياة أو يحقق أهدافها فيها الآن أو غدا أو فى أى وقت . . لأن السأم عدو السعادة ولأن الإحباط واليأس اعدى أعداء الانسان ولأنه اذا ثبَّت المرء عينيه على أوضاعه وتصور انها سـوف تستمر بنفـس ظروفهـا الى ما لا نهايـة لما غادر فـراشه . . ولما شارك فى مباراة الحياة بحماس الراغبين فى الفوز وفى تحقيق الاحلام .

والزعيم الافريقي نلسـون مانديللا مثلا أمضى وراء الأسـوار ٢٨ عاما افترق خلالها عن زوجته وابنته التى تـركها طفلة وليدة ، وكانت حكومـة جنوب افريقيا

تؤكـد كل يوم أن الافـراج عنه مستحيل إلى أن يمـوت فى سجنه وأن دونـه «خرط القتاد» كما يقولون والقتاد بالمناسبة نبـات صلب جدا له شوك كالإبـر يستخرج منه اجـود أنواع الصمغ ومن المستحيل خـرطه بـالسكين! ، ولو صـدق ما قيل لـه أو صدقت ذلك زوجتـه وابنته لوفروا جهدهما ومسـاعيهم لكنهم لم يفعلوا ولم يتسلل اليأس الى نفوسهما وواصلوا حملاتهم ونداءاتهم فتحققت المعجزة ورفعت الحكومة الافريقية الـراية البيضاء وغادر العمـلاق سجنه شابا فـوق الستين وواصل كفاحه كأن لم تعترضه محنة سجن استمرت ٢٨ عاما فقط لا غير .

والطبيب الألمانى البرت شفايتـزر غادر بلـده شابـا واختار ان يعيش فى مجاهل افريقيا فى اوائل القـرن الحالى فى قرية لا ماء نظيفا بها ولا كهـرباء ولا شىء فيها من مباهج الحياة فى اوروبـا ، فاعتبرته اسرته فاشلا ضحى بفـرصته فى أن يصبح طبيبا معـروفا يجمع ثـروة فى بلـده كما يفعل زملاؤه ، وامضى الطبيب الألمانى سنـوات عمره يعالج مـرضى الجذام وهو مرض جلدى كان يثير الـرعب فى نفوس الأطباء خوفـا من العدوى ، وأنشأ فى قريـة لامباردينى بالكـونغو مستشفى بدائيـا لعلاج الجذام . . وسقط اسمه من ذاكرة الأصدقاء والمعارف والأوساط الطبية . . وليس مستبعدا أن يكون الندم قـد ساوره فى بعض الأحيان على ذلك لكن العمل الصالح لا يضيع سـدى ، فبينما كان يعيش حياتـه البسيطة ويكتب مـن حين الى حين مقالا يبعث بـه الى الصحف الاوروبيـة عن الأحـوال فى افريقيـا وجـد نفسـه فجأة محط الانظار فى بلده وفى العالم كلـه فالرحالة يأتون اليـه فى مستشفاه البعيد والصحفيون يسعـون اليه فى مستشفـاه البعيـد والصحفيـون يسعون اليـه ويسجلـون آراءه . . وكليات الطب تـدعوه للمحاضرة فيهـا ويذهب هو الى اوروبـا ليلقى المحاضرات وينشر الكتب والمقالات ويعـزف الاورج فى الحفلات ليجمع التبرعـات لمستشفاه فيفاجأ النقـاد الفنيون بمستوى عزفـه ويعتبرونه واحدا من أبـرع عازفى الأورج فى العالم ويـرضى عن نفسه لذلك ويتصور أنـه قد نال كل ما حلم بـه . . لكن الحياة تهديه هدية أخـرى لم ينتظرها هى جائزة نوبل فيسعد بتقـدير العالم له ويعيش أجمل

أيام حياته الى أن يرحل عن الدنيا عن ٨٣ عاما في سنة ١٩٦٥ .

والفيلسوف الألماني شوبنهاور ظل ٤٠ سنة يكتب ويؤلف ولا أحد يحس به أو يوليه بعض ما يستحقه من تقدير واهتمام حتى بعد ان أصدر الجزء الأول من مجلده الضخم «العالم ارادة وفكر» فكان يمضي أيامه وحيدا صامتا لا ينطق احيانا بحرف واحد لمدة اسابيع . . ثم تولاه اليأس من أن ينال ما يستحق من تقدير علمي فتوقف عن الكتابة ١٧ سنة متصلة لم يكن يفعل خلالها شيئا سوى القراءة وتناول وجبات الطعام في المطعم والتحديق صامتا بالساعات في تمثال بوذا الذي يضعه أمامه على المكتب ثم استعاد حيويته فجأة ونشر مقالا فلسفيا ثم أصدر الجزء الثاني من مجلده فاذا بالباحثين من كل الانحاء يطرقون بابه واذا بالدعوات تنهال عليه من الجامعات الاوروبية واذا بالأوساط العلمية تلتفت اليه وتضع على رأسه أكاليل المجد . . واذا بالشهرة تفاجئه وهو يقترب من سن السبعين وهو يرقب كل ذلك متعجبا ويقول : بعد ان عشت حياتي وحيدا منسيا جاءوا فجأة ليودعوني الى قبري بالهتاف والتهليل !

وقد يكون ما قاله صحيحا . . لكنه صحيح أيضًا أن أجمل أيام حياته قد جاءته هو أيضًا وإن كانت متأخرة بعض الشيء !

والحق أن الإنسان يحتاج دائما إلى أن يجدد حياته من حين الى آخر باشعال شمعة جديدة من شموع الأمل في حياته كلما ذابت شموعه الأولى وبالسعي دائما وراء هدف مشروع لا يتخلى عنه . . وبالايستسلم للاحباط مهما كانت البدايات غير مبشرة ومهما عرقلت الصعوبات والعثرات طريقه فكل الذين حققوا نجاحهم في الحياة قد فعلوا ذلك . ولم يقولوا ابدا ضاع العمر يا ولدي ولم يعد هناك وقت لكي نبدأ من جديد أو لكي نتحقق الآمال التي طال انتظارنا لها . . فالانسان قادر دائما على ان يكتسب مهارات جديدة في أي مرحلة من العمر يستعين بها على مقاومة السأم واليأس والقنوط . . فالامام محمد عبده مثلا عاد لمصر من المنفى وعين قاضيا بالمحاكم فوجد نفسه بين قضاة يجيدون الفرنسية ويتفاخرون بقراءاتهم في

القانـون الفرنسي وشروحـه فلم يرض لنفسه ان يكـون أقل منهم رغم انه كـان قد يئس من تعلم الفـرنسية خـلال اقامتـه بـاريس مع استاذه جمال الأفغـانى ولم يقل لنفســه لقد حـاولت وفشلت وانما استدعى معلما لتعليمـه الفرنسيـة وسهر الليـالى يحفظ قواعـدها وتعبيراتها وخـلال فترة قصيرة اجادهـا وأصبح يسافـر كل سنة فى الصيف الى جنيف وباريس ليستمع الى المحاضرات العامة فى جامعتيهما .

وسعد زغلـول زعيم الأمـة فى ثورة ١٩ قد فعـل شيئا شبيها بـذلك فلقـد كان قـاضيـا وزوجـا وصهـرا لـــرئيس وزراء مصر ولم يكن من الحاصلين على شهـادة الحقوق فرأى انه لا يليق به ان يكون كذلك فـدرس الحقوق بالفرنسية فى بيته وكان يسافـر كل سنة ليـؤدى الامتحان فى الســوربون حتى حصل على شهـادتها واكسبه ذلك صلابة جديدة .

ولماذا نذهب بعيدا واستـاذنا نجيب محفوظ نفسه كان لطبع فيـه يرضى بكل ما تحمله لـه الحياة يتصـور انه قـد نال كل مـا يريده لنفســه من مجد ادبى وربما لم يكن يكّـدر عليه صفاءه سـوى أن بعض الدول العربية كانت تفـرض المقاطعة على كتبه منذ توقيع اتفاق كامب ديفيد فاذا بالتاريخ يحمل له إنصافاً كان يستحقه بكل تأكيد ولم يكن يتوقعه وإذا به يصبح فخر تلك الدول التى كانت تقاطعه قبل قليل !

ولـو كان أحـد شباب اوروبـا الشرقية مثـلا قـد حلم منذ ٧ سنـوات فقط بأن الشيوعية ستسقط فى بلده وسيصبح من حقه السفـر بحرية الى الخارج ليتزوج مثلا فتاتـه التى احبها خلال سفره مع فـريق رياضي الى باريس او لنـدن لاتهمه البعض بالجنـون . . لكن ما كـان جنونا قـد أصبح حقيقة بعد سنـوات قليلة لأنـه كما قال صادقا الفيلسوف الإغريقي : كل شيء يتغير فى الحياة الا قانون التغير نفسه ! ولو تخيلت ناديـة كومانشى بطلـة رومانيا فى الجمبـاز التى قامت بمخاطـرة لتهرب من بلادهـا لتتزوج حبيبهـا فى امريكا أن الشيـوعية سوف تسقط فى بـلادها بعـد هربها بعـامين فقـط وسيصبح من حقهـا ان تهاجـر وتتـزوج من اجنبي بـــلا مخاطـرات لعرضتها اسرتها على الفور على طبيب نفسى . .

والأمثلة كثيرة ودرسها الأول هو ان الطرق المسـدودة لن تبقى مسدودة أمامنا الى النهايـة . . ولا بد ان يحصل كل انسان على مـا يستحقه من نجـاح ومن سعادة ومن توفيق . وان الانصـاف سوف يجيء فى موعده . . او متأخـرا . . فى الدنيا أو فى الآخـرة ، لكنه لابـد ان يجيء لكل من بـذل العـرق وتسلح بالارادة والكفـاح وعمل صالحا يرضاه ربه وسعى الى اهدافـه بالوسائل المشروعة واحترم فكرة الحياة فلـم يؤذ أحدا ولم يدمـر حياة احد . . فان شكوت يا صـديقي من زحام الطريق الى الأهداف ومن الملل وطول الانتظار فردد معى كلمات ناظم حكمت ولا تفقد الثقة لحظة واحـدة فى احقيتك ان تنال حظك العادل من السعادة والنجـاح . وان اشتد الظلام حـولك فردد معى مناجـاة شاعر الهنـد العظيم طاغور لـربه : رب امنحنى القـوة لكى أصبر على الأتراح والأفـراح رب امنحنى القوة لاسمـو بروحى فـوق توافه الحياة !

. . وأضف اليها من «انشائي» انا : ربٍّ سوف افعل كل ذلك لأني مؤمن بك وبعدلك وبإنصافك . . ولاني من ناحية اخرى لست «فاضيا» لمثل هذه التوافه . . فأنا أعمل وأكافح وأنتظر صابراً وواثقًا . . اجمل أيام الحياة . .

أنت ...... أنت الزعيم!

هل تريد أن تصبح زعيما ؟

تستطيع أن تكون كذلك بغير حاجة لأن تكون رئيس دولة ديمقراطية وصل إلى منصبه بعد ماض حافل ومعارك انتخابية ومنافسات مريرة . وتستطيع أن تكون كذلك بغير أن تكون أيضاً دكتاتوراً صغيراً قفز إلى الحكم بإنقلاب عسكرى أو ركب دبابة فى الفجر وحاصر بها قصر الرياسة حتى استسلم الرئيس المخلوع أو قتل تحت الأنقاض !

بل وتستطيع أن تكون كذلك بغير حاجة لأن تكون «قائد طابية» ولا رئيساً لمجموعة من الشركات ولا مديراً مهيبًا ترتج الأرض تحت أقدامه حين يدخل إلى مكتبه !

ذلك ان كل إنسان مهما كان شأنه يستطيع أن يكون زعيما مهيباً ومحبوباً فى نفس الوقت اذا فعل ما يطالبه به الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج صاحب العبارة الشهيرة «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» ، حين يقول :

«احتفظ بثباتك فى الوقت الذى يفقد فيه الآخرون ثباتهم»!

ففى هذه الحالة تكون اقواهم وأكثرهم تحكما فى الموقف وأكثرهم امتلاكا لناصية الأمور فتصبح الزعيم والآخرون اتباعا مهما علا شأنهم . ولهذا السبب نفسه قال الفيلسوف الاغريقي زينون حين سئل أى الملوك أفضل . . . ملك الفرس أم ملك اليونان ؟ فأجاب بهدوء : من ملك شهوته وغضبه !

وهذا صحيح . . فمن يملك نفسه يستطيع ان يملك الآخرين وان يحقق

أهدافه فى الحياة والا يسمح لأيـة عوامل خارجية باعتراض طريقـه وإفساد سلامه النفسى وسعادته الخاصة !

والدليل هو صـاحب النصيحة الهامة نفسه الشاعـر كبلنج . . فلقد حافظ على ثباتـه معظم سنـوات حياتـه ثم فقده مـرة وانساق وراء انفعـالاته فتـورط فى نزاع قـانونى مع شقيق زوجتـه افسد عليـه حيـاته ودفع ثمنـه غاليـا من سمعته وراحـة اعصابه واضطر لمغادرة امريكا مع زوجته هربا من آثاره !

وهكـذا اثبت صـدق نصيحتـه مـرتين . . . مـرة بـالالتـزام بها . . . ومـرة بمخالفتها وكانت النتيجة فى كلتا الحالتين مؤكدة !

ومن يجيد التحكم فى نفسـه وكبح اهوائه وشهواتـه وغرائزه وانفعالاتـه يرشح نفسه بقوة للزعامة فى دولته الخاصة . . ويكسب الأصدقاء والأنصار بسهولة . . . ويستمتع بأكبر مـا يستحق انسـان ان يفخر بـه وهو حـب الآخرين واحترامهم لـه واعتزازهم به وتهللهم لرؤيته وصحبته بدلا من النفور منه والاسراع بالهرب منه اذا اقبل عليهم مهما كان خطير الشأن وثريا ومشهورا، فالنفس البشرية تنفر تلقائيا من الغلظـة والسماجة والعـدوانية والظلـم . . وهـذه كلها من صفـات العاجـز عن ان يتحكم فى نفسه وانفعالاته ، كما انها غالبا من صفات الانسان الظالم الذى لا يلتزم غالبا بالعدل والقيم الاخلاقية فى حياته . .

ولا قيمة للمنصب الخطير ولا للمال والشهرة فى حب الآخـرين لك فقد تكون انسـانا بسـيطًا لكنـك تحـرص على ألا تغتصـب حقـ غـيرك والا تؤذى مشـاعر أحـد وتجاملهم ولا تتـوانى عن خـدمتهم ان استطعت وتلتـزم بـالعـدل والقيم فى حياتك . . فتفـوز بحبهم ورضائهم أو تنجـو على الأقل من كراهيتهـم وانتقادهم ونفورهم .

وقد تكون ثريـا كجون د . روكفلر مؤسس الامبراطورية الماليـة لعائلة روكفلر الأمريكية وقد كان «وغدا» بكل معنى الكلمة فحطم فى طريقه لجمع ثروته الخرافية الكثيرين ولم يتورع عن تـدمير حتى اقرب الناس اليه اذا اعترضوا طـريقه . فجمع

المال وكراهية الناس فى وقت واحد ثم جلس على عرش امبراطوريته وحيدا مكروها . . . وخطر له ان يكلف احدى الصحف التابعة له باجراء استفتاء لمعرفة من هو اكثر الأشخاص المكروهين فى امريكا فى ذلك العام (عام ١٩١٢) فجاء اسمه فى المقدمة وقبل سفاح شهير كان قد قتل واغتصب ست فتيات فى بضعة شهور ! وزعم روكفلر انه حزن لهذه النتيجة واراد ان يكفر عن جرائمه فبنى كنيسة جديدة فى كليفلاند وراح يلقى فيها بنفسه موعظة الأحد لكن أحداً لم يدخل كنيسته بل وكان بعض المارة ينتقلون الى الرصيف الآخر لكيلا يعبروا أمامها فلا يسمع موعظته راغمين إلا بعض موظفيه !

ولم يكن ذلك هو عقابه الوحيد من الحياة فقد أرسل إليه شقيقه الأصغر فرانك يبلغه أنه سوف ينقل رفات أطفال له ماتوا من مقبرة الأسرة الى مقبرة جديدة لأنه لا يريد أن تبقى رفات أولاده فى أرض يملكها رجل ظالم مثل شقيقه ! فماذا تساوى حينئذ كل ملايين الأرض ؟

هذا رجل كان يستطيع أن يكون «زعيما» لكنه آثر أن يكون بغيضاً . فاذا أصبحت أنت زعيما محمولا فى قلوب من حولك فأنت أغنى منه وأفضل وأكثر فائدة للحياة والمجتمع منه .

وطريقك للزعامة يمهده لك الكاتب الأمريكي رالف امرسون (١٨٠٣ ـ ١٨٨٢) الذى يطالبك بشدة بذلك قائلا : لنكن بناة وقادة . . . ابنوا عالمكم الخاص ابنوا حياتكم الخاصة !

فكل انسان يبنى حياته ويسعى بحماس لتحقيق أهدافه ويلتزم بالقيم والعدل فى سعيه إليها هو زعيم صغير ، ورعيته هى نفسه التى أجاد التحكم فيها وفى تطويعها للسير فى الطريق الذى يوصله الى أهدافه الشريفة البسيطة فى الحياة . . . ورعيته أيضاً هم هؤلاء الذين يتحمل مسئوليتهم المادية والأدبية والنفسية ويحاول أن يقيم العدل بينهم وأن يُعلِ المثل العليا فى دنياهم وهم هؤلاء الذين يهتم بأمرهم ويهتمون بأمره .

ومن خصائص الزعماء الكبار ألا يهتموا بالصغائر لأن وقتهم مشغول دائما بجلائل الأمور لكن هذه الميزة ليست مقصورة على الرؤساء والملوك والقادة وحدهم وإنما هى أيضًا من خصائص الزعماء الصغار لأن الإنسان الجاد الذى يعرف طريقه إلى أهدافه ويسعى إلى أن يحيا بسلام مع نفسه ومع الآخرين ينبغى عليه ألا يتوقف طويلا عند التوافه وألا يسمح لها بأن تفسد عليه علاقاته بالآخرين وصداقاته وأعصابه . ومن أجمل ما قرأت فى هذا المجال تلك العبارة لفيلسوف إسمه بيركلير يقول فيها «هيا ننهض أيها الإخوان فقد طال جلوسنا فوق التوافه!» ولقد أعجبتنى هذه الكلمة كثيرا وآلمتنى أكثر وتمنيت لو كنت قد تعرفت عليها منذ زمن طويل قبل أن تفسد «التوافه» بعض العلاقات الإنسانية علىَّ ، لكن متى تعلَّم الإنسان الحكمة بغير ثمن باهظ من أيامه وأعصابه وذكرياته الأليمة ! فأنا كغيرى من البشر جلست أيضا طويلا فوق التوافه وخسرت علاقات إنسانية وأشخاصا لأسباب قد ينساها الإنسان العاقل بعد ايام وربما بعد ساعات . . . ولو عادت الأيام ما سمحت لتلك التوافه أن تفقدنى انسانا أو أن تقطع صلة انسانية مهما كان نوعها أو درجتها . . . ولكن متى أيضًا اعادت الأيام لخاسر ما أضاعه من بين يديه بتمسكه بالتوافه من الأمور ؟

لهذا فلست مؤهلا للزعامة . . . لكنى ارشحك أنت لها وأطالبك بأن تستعين عليها بالاستفادة من دروس حياة الحمقى من أمثالنا . . . وأريدك أكثر وأكثر أن تؤمن بما آمن به الكاتب الروسى العظيم تشيكوف حين قال فى رسالة لشقيقه الأصغر «ان الإنسان الشريف لا يمكن أن يكون تافه الشأن أبدًا مهما كان قدره أو علمه او بساطته وأنت إنسان شريف إذن فلتحمل لنفسك من الإحترام ما هو جدير بإنسان شريف وينبغى ألا تخلط أبدًا بين التواضع الكريم وبين الإحساس بتفاهة الشأن» .

وهذا ما أطالبك به أنا أيضًا يا صديقى . . . فكل إنسان شريف يؤدى واجبه بأمانة ويخدم الحياة بعمله . . ويلتزم فى حياته بالقيم والانصاف والمثل العليا . . .

هو إنسان عظيم الشأن مهما كان قدره . . . وهو زعيم بطبعه لأنه فرض زعامته على نفسه ووجهها إلى الطريق الصحيح .

فاذا عرفت أن تشيكوف قد قال أيضًا : إنه لو فعل كل إنسان ما فى وسعه لتجميل رقعة الأرض التى يقف فوقها لصار كوكبنا فتنة للأنظار ! لعرفت إذن أنك تستطيع أن تفعل الكثير لو حاولت أن تجمِّل المكان الذى تعيش فيه أو تعمل به أو على الأقل ترفع عنه الأذى وتحافظ عليه . .

أما لو استمعت إلى نصائح كل هؤلاء الفلاسفة والكتاب العظام ونفذتهالعرفت انك أنت . . أنت الزعيم وكلهم . . . ولا مؤاخذة !

هـــذا .. حســن !

أنت تبحث عن السعادة . . وأنا أيضاً . . فأين نجدها ؟

ان الكتب السماوية تقول لنا : ان السعادة فى الايمان وتسليم الأمر لخالق الكون والرضا بالمقدور وتجنب الشر وفعل الخير . .

وعلم النفس يقول لنا انها فى اتزان الشخصية . . والتوازن بين قدرات الانسان ورغباته وطموحه . .

والماديون يقولون انها فى اشباع حاجات الانسان المادية وغرائزه . .

والمرضى يقولون انها فى الصحة . . والأصحاء يقولـون لو كانت فيها وحدها لكانت الوحوش أسعد مخلوقات الأرض، والمغمورون يقولون انها فى الشهرة . . والمشهـورون يقـولـون بحثنـا عنهـا ولم نجدهـا . . والفـاشلـون يقـولـون انها فى النجـاح . . والناجحـون يقـولـون ما أبهظ الثمن الـذى دفعنـاه من سعـادتنا ثمنـاً لنجاحنـا ، والمحرومـون يقولون انها فى الثـراء . . والأثرياء يقـولون ليتهـا كانت كـذلك . . والعزاب يقـولـون انها فى الـزواج والأبناء . . والمتـزوجـون يقولـون مشاكلنا اكبر من احتمالنا !

والفلسفة البوذيـة تقول لنا اننا لن نجدها فى الحيـاة مصدر الآلام والأحزان . . ولا سبيل اليها إلا بدخول «النرفانا» أو النعيم الذى لا يدخله إلا من حارب أهواءه المادية وتـرك المتع الـدنيويـة وكل انواع اللـذائذ . . والصوفيـة يقولـون لنا انها فى الاتصال الروحى المستمر بالله . . والترفع عن اعراض الدنيا . .

فما هى هذه السعادة التى يطلبها الانسان منذ دب بقدميه على الأرض ؟

ان تعـريفـات السعـادة كثيرة . . لكـن اقـربها إلى عقلى هى انها ذلك الشعـور

المتصل بالبهجة والطمأنينة والسرور الذى يرافق الانسان برغم ما قد يعترض مجرى حياته من مشاكل مؤقتة او الام عابرة . فاذا كان هذا هو تعريف السعادة فإن ذلك يعنى ان السعادة ترجع غالبا إلى الانسان نفسه وليس إلى الظروف المحيطة به ، وان اكبر قدر من السعادة الحقيقية انما ينبع من داخل الانسان وليس من خارجه ، لذلك فقد يستشعر الإنسان السعادة وان كانت ظروفه لا ترشحه لها . . وقد يستشعر الشقاء وان كان كل ما حوله يطالبه بالسعادة . . وربما يكون هذا هو السر فى اننا قد نرى أحياناً فى اسرة واحدة فرداً قادراً على الابتهاج بكل شىء وسعيداً بيومه ومتفائلاً بغده . . والى جواره شقيقاً له يستشعر الشقاء فى كل ما حوله . . بالرغم من أن ظروف الحياة واحدة وقدرات الاثنين متقاربة ، ولم تمتحن الحياة احدهما بتجربة قاسية . . لأن الانسان يستطيع ان يستشعر السعادة اذا رضى عن حياته . . وتمسك بالأمل فى غد أفضل . . ويستطيع ان يستشعر الشقاء اذا ثبّت عينيه دائماً على «الشىء الناقص» فى حياته وتعامى عن الكثير الذى منحته له الحياة او عوضته به عما ينقصه . . هل لاحظت معى ان أكثر الناس فراغاً هم أكثرهم ضيقاً بالحياة وافتقاداً للسعادة ؟ . . هل تعرف السبب ؟ . . أنا أعرفه . . لأن من أكثر أسباب شقاء الإنسان ضيق افقه وكثرة انشغاله بنفسه وتفكيره فيها باستمرار كما لو كانت محور الكون . . ومن يشكون الفراغ لا يجدون ما ينشغلون به سوى أنفسهم، وكلما ازداد انشغال احدهم بنفسه رآها جديرة بحياة غير حياته . . ودخل أعلى من دخله . . وصحة أفضل من صحته ومركز اجتماعى أعلى من مركزه . . وزوجة أجمل من زوجته اذا كان متزوجاً ، بل وربما أيضاً بأسرة ارقى من اسرته ، أما اذا انشغل عن نفسه بكثير مما يستحق الانشغال به من أمور الحياة . . فسوف تتسع نظرته للحياة فيرى نفسه فرداً بين أفراد لا حصر لهم . . وكائنا بين بلايين الكائنات . . يستحق الكثير . . نعم . . ولكن كما يستحقه الآخرون . . ولا عجب فى وجود بعض اوجه النقص في حياته ففى حياة الآخرين أيضاً اشياء كثيرة ناقصة . . ولكل انسان من حياته ما يسعده . . ومن همه ما

يشقيه . . لكن الحياة لابد ان تمضى . . ولابد للسفينة ان تواصل الابحار مستهدية ببوصلة الايمان والتفاؤل والرضا بما تقذفها به من حين لآخر أمواج البحر من ضربات .

وأقل الناس ضيقاً بالحياة هم من يجددون دائماً لأنفسهم أهدافاً قريبة تتناسب مع قدراتهم وامكاناتهم ويسعون بوسائل شريفة إلى تحقيقها ويستشعرون السعادة فى كفاحهم للوصول إليها . . وكلما حققوا هدفاً رضوا عن أنفسهم وشكروا ربهم وتهيأوا بعد استراحة قصيرة للسعى إلى هدف آخر قريب المنال . . وأفضل من فهم هذا السر هو الكاتب الايرلندى العظيم برناردشو حين قال :

«اننى اخشى النجاح التام . . ذلك ان معناه هو انتهاء مهمة الانسان فى الحياة تماما كذكر العنكبوت الذى تقتله الأنثى بمجرد نجاحه فى أداء مهمته . . لهذا فانى أفضل الحياة مع وجود هدف أمامى أسعى إليه . . على أن أكون قد حققت كل أهدافى وتخطيتها وأصبحت ورائى . . ولم يبق لى إلا انتظار الموت» . .

والحماس دائماً يا صديقى قرين النجاح والإحساس بالسعادة ، والخاملون كالمياه الراكدة لا يعرفون أبداً النجاح ولا يتذوقون طعم السعادة الحقيقية . . ولكى تضع أقدامك على بداية طريق السعادة لا بد ان تؤمن بأنك انسان خيرٌ . . وبأن الحياة خيرة . . وبأن المصير خيرٌ . . وإيمانك بخيرية الذات يتحقق بأن تكون نياتك خيرة . . وأهدافك شريفة . . ووسائلك إليها لا تتناقض مع مبادئك ومعتقداتك ، وايمانك بخيرية الحياة يدفعك للتمسك بها . . ورفض مظاهر الشر فيها . . واثراء ازهار الخير فيها ، وايمانك بخيرية المصير وبأن الجنة للمتقين يدفعك إلى تجنب الشرور وإلى الاستزادة من رصيد الخير فى حياتك طلباً للسعادة فى الدنيا والآخرة . . فاذا آمنت بهذه المبادئ الثلاثة . . فانك ترشح نفسك لنيل السعادة مهما كانت مشاكلك . . وآلامك . واذا أردت أن تختبر نصيبك من السعادة الحقيقية . . فتوقف لتراجع حياتك الآن . . وتستعرض كل جوانبها . . فاذا استطعت بعد إنتهاء المراجعة أن تقول كما قال الفيلسوف الألمانى «كانت» وهو

يراجع حياته قبيل رحيله : «هذا حسن !» . . فأنت انسان سعيد واذا استطعت أن تقول بعد المراجعة : أحب الحياة والناس . . ولا أشعر بالغربة بينهم . . ولا أشعر بالكآبة إذا انفردت بنفسي . . لا أطلب ثأراً من أحد . . ولا يطلب أحد ثأراً مني . . استقبل يومي كل صباح مستبشراً بيوم جديد وخير متوقع . . وأنام كل ليلة راضياً عن نفسي ويومي وحياتي . . أرى الجمال في كل شيء ولو لم يكن جميلاً واستمتع بكل شيء ولو كان تافها . . افرح بما يأتيني ولو كان قليلاً . . ولا آسى على شيء فاتني ولو كان كبيراً ما دمت لم أقصر في السعي إليه إذ لو كان مقدوراً لي لما فاتني . . ولو كان مقدوراً لغيري لما نلته مهما أجهدت نفسي . . صحتي طيبة . . ورغائبي تتحقق بكفاحي . . وما لا يتحقق منها الآن فأملي كبير في أن يتحقق غداً أو بعد غد . . حياتي لها قيمة ومعنى عند اسرتي وأصدقائي وأحبائي . . وحياتهم لها قيمة ومعنى عندي . . أفيد الآخرين . . وأستفيد منهم . . أساعدهم . . وأتقبل شاكراً مساعدتهم . . أرى في كل إنسان جانباً خيِّراً استطيع أن أتعامل معه من خلاله . . وأشعر بأني لست وحدي في الحياة . . فخالقي يرعاني ويرقبني ويشد أزري وأناجيه في صفوي وفي كدري . .

إذا استطعت أن تقول كل ذلك أو معظمه . . فأنت إنسان سعيد مهما كانت آلامك . . وأحزانك . . ومشاكل حياتك . .

أما إذا لم تستطع . . فلا تضيع الوقت وواصل البحث معي عن طريق السعادة ! ! ■

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٦ (نفد)
٢- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٠ (نفد)
		الطبعة الخامسة	٢٠٠١
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٠
		الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٩ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٠ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٩
١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
١٢ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨

١٤ـ وقت السعادة . . ووقت البكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
١٥ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
١٦ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٤
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٧ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
١٨ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثالثة	٢٠٠١
١٩ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
٢٠ـ خاتم فى أصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثالثة	١٩٩٩
٢١ـ وحدى مع الآخرين	مقـــالات	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
٢٢ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	١٩٩٨
٢٣ ـ هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٤ ـ مكتوب على الجبين	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٥ـ أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٧
		الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٦ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثالثة	٢٠٠١

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩٠ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذا الكتاب

وكان قد ضايقنا بالانتظار طويلا فى ذلك اليوم لينتهى من الحديث مع بعض اقاربه حين جلسنا إلى مائدة الغداء .. وسألنا نفس السؤال التقليدى بنفس الخطأ اللغوى :

● أنا خنزير .. وأنتم بقر ؟!

فوجدت نفسى أجيبه على الفور : لا .. بل أنت خنزير .. ونحن نأكل لحم البقر !

وضحك زميلاى فى الوفد وشمتُّ أنا فى « بيتريه » الخبيث الذى طوع معظم فقرات برنامجنا لأغراضه العائلية والشخصية ونسى .. حكاية تضامن الشعوب واستقلال ناميبيا فى معظم الرحلة !!

فاندهش انت أيضا يا صديقى لكل ما تراه وتسمعه فالدهشة بداية الطريق للمعرفة .. ووقود الحماس لمعرفة الأشياء وللحياة . والمثقف الحقيقى هو من يعرف أنه لايعرف الكثير ويريد أن يعرف الكثير .. والجاهل هو من لايعرف أنه لايعرف حتى القليل ولا يريد أن يعرف المزيد .

والأخطر منهما هو من كان مثلنا زمان والذى يعرف أقل القليل ويتصور انه يعرف الكثير .. « ويعذب » الآخرين بالقليل الذى يعرفه!.

ورغم كل ذلك فاذا كنت قد شبهت الصداقة الحقيقية بالروماتيزم فليس ذلك لأنها مؤلمة .. وإنما فقط لأنها دائمة ، ولا يهزمها دواء .. ولأنها أيضًا كآلامه تظل كامنة تحت السطح حتى يخيل إليك أنك نسيتها ثم « تنقح » عليك فجأة إذا تلقت نفحة من هواء الذكريات لتذكرك بوجودها وقوتها وبأحلى أيام العمر .. وأجمل ذكرياته !